قصص



علاء الديب

المسافر الأبدي

قصص وحكايات

دار الشروق

طبعـة دار الشروق الأولـى ٢٠١١
رقـم الإيـداع ١١٦٢٢/٢٠١٠
ISBN 978-977-09-2868-8
٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكـس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)+
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

المحتويات

نهر تحت الصخر

كنت أنا وصديقتي يومًا في حجرتنا المظلمة. وكان كتفها عاريًا ولون فستاتها أسود. قلت لها:
ـ كنت أصلي.
ـ أنت تصلي؟
ـ أجل قبل أن تأتي أنت. صليت. وبكيت. وعرفت أن النور سوف يطلع علينا من الشرق. فتحت الشباك وإذا الدنيا في الخارج ظلام. كان تحت شباكي كلب مقتول، وأطل جاري من الشباك المقابل، وقال: «اغلق الشباك، واستمر في الصلاة، وإياك أن تفتحه».
ثم سمعت عويلاً، وصراخًا وصوت أشجار تتحطم، ورائحة بخور، فصليت مرة أخرى حتى وقعت مغشيًّا عليّ.
ـ يا حبيبي، أكل هذا حدث قبل أن آتي إليك؟
ـ أجل، بدقائق. دقائق فقط.
فبكت مرة أخرى وهي تحتضنني.
كنت أنا وصديقتي نسير يومًا في الحديقة، وسقطت علينا أوراق شجر كثيرة صفراء. سقطت على شعرها وفوق كتفها، وداست بأقدامها ورقة كبيرة. ثم ابتسمت وكأنها شمس.
قالت:
ـ أريدك أن تعرف السعادة. تعال معي وراء هذه الشجرة وخلف الشجرة كان هناك بئر كبيرة. وفيه سقطت صديقتي. لم أكن أراها لكن صوتها كان يمزق قلبي:
ـ اعرف السعادة. اذهب واعرف السعادة.
ومن يومها وأنا أسمع من كل الآبار نفس هذا الصوت.
استأجرت غرفة صغيرة فوق السطح في إحدى العمارات القديمة. ولم يعد يزورني أحد. في الصباح أذهب إلى وظيفتي وقبل أن أنزل أضع حزمة صغيرة من البرسيم الأخضر للأرنب الأبيض الصغير الذي أربيه. أرنب أبيض عيونه حمراء.
صديقي الوحيد.
كان ينام في صندوقه السلك الصغير، عيونه متجهة إليّ وأنا راقد في السرير أراقبه. في العصر عندما تبدأ الشمس تدخل من نافذة حجرتي. أراقبه حتى أنام، تظل عيونه الحمراء آخر شيء أراه حتى في أحلامي.
في أوقات الفراغ كنت أمسكه من أذنيه الطويلتين، أظل أحدق في عيونه حتى ينام، بعد أن ينام ألمسه فيرتعش من جديد.
صار الأرنب حياتي.
في يوم الجمعة الماضي تناولت إفطارًا كبيرًا، من الفول والزبد والبيض المقلي على المائدة الخشبية الصغيرة. كان الأرنب ينظر إليّ ويلوك شيئًا في فمه.
شمس الصباح تسقط عليه. شعره الأبيض شفاف وعيونه الحمراء تلمع. أحسست براحة غريبة.
أصبح لي بيت.
بعد أن انتهيت من الطعام دخنت سيجارة في الشمس. أخرجت الأرنب من صندوقه السلك، وضعته في حجري، راح يلعب برأسه، وعيونه الحمراء تضحك.
هبت الريح فجأة، وانفتح باب الحجرة، ليقفز الأرنب من حجري هاربًا.

اندلعت من فمي صرخة.
الريح عاصفة. والشمس تحت السحاب. وأرنبي يقفز هابطًا السلم. سقطت عند رأس السلم، بقيت كذلك للحظات. هبط المطر. ضاع الأرنب في زحمة الشارع.
لفظتني حجرتي الصغيرة. الباب لا يزال تعبث به الريح. والشمس تحجبها أكف السحب. ظلام خال مهجور.
ليلة بعد ليلة، حمل ثقيل، الشط والشارع، وأعمدة النور. قشور ترمس ملقاة. أوراق تدفعها الريح في شارع أسمر طويل.
أصوات الناس بعيدة، تسقط عندما تلمس القناع الذي أرتديه.
تحت الصخر نهر يجري، والصخر قاس يدمي القلب. وهناك أمامي تحت السحاب في الليل عيون بعيدة جميلة تتكلم بألف لسان.

التراب يغطي وجهك

عندما أخذوا مني الدور وقرروا أني لا أصلح غادرت المسرح، انطلقت في الشارع، خطواتي سريعة، العطش يسد حلقي، ويداي باردتان.
خلفي كان نور المسرح قد اختفى.
قال لي المخرج:
ـ وجهك يغطيه التراب. امسحه. ادعك وجهك.
وابتسم ثلاثة من الزملاء. وعاد التراب يغطي وجوههم.
وقهقهت زميلة.. وعاد التراب يغطي وجهها. ووجوهكم جميعًا. كان الشيء الذي أخافه يقترب. كان يتكون وينمو في فراغ القاعة ويدنو نحوي في خطوات بلا وقع.
وساد صمت، وبعده طردت.
ـ كفى، أشكرك، أنت لن تستطيع، أشكرك، كفى التراب يغطي وجهك، أشكرك.
نزلت من على المسرح، وصعد بعدي واحد، وداعب المخرج شعره.
ماذا فعلت حتى أهان بهذه الطريقة؟
إنني خائف أرتجف. أخذوا مني الدور. وقرروا أني لا أصلح.
الشارع بارد.
ما هو المطلوب مني الآن. وماذا يجب أن أفعل.
لقد حدث الشيء وتحقق. أصبح يسير معي ملصقًا خده بخدي، وخطواته بين خطواتي، أربع أقدام وجسد واحد.
المقهى الذي جلست فيه نظيف ومضيء.. وحدي والليل ينتصف وصاحب المقهى في يده مقص يقلم به أظافره في ركن بعيد.
الكراسي مرصوصة حول الموائد.. بقع من الألوان تلمع تحت الضوء. الجرسون عجوز، شعره أبيض.. وخطواته لا تلمس الأرض.
ـ الوقت متأخر، والدنيا برد.
ولم أرد.
ـ أين بقية الأصدقاء، ألن يأتي أحد الليلة؟
هززت رأسي وقلت:
ـ لا.. لن يأتي أحد.
ـ هل حدث شيء.
ومن زجاج المقهى كانت هناك شجرة من أشجار السرو بعيدة وعالية.. تهتز قممها وتخفي جزءًا من وجه القمر.
لم يحدث شيء. فقط ستظل قمة شجرة السرو دائمًا لتخفي جزءًا من وجه القمر.
شجرة السرو، ووجه القمر.
التراب ووجه القمر.
الجرسون العجوز يتكئ على الرخام البارد.
نقطة ماء على المائدة. أحاول أن أرسم بها شيئًا ولكنها تجف.. ونور بعيد بجانب شجرة السرو ينطفئ.

ـ الساعة الواحدة. سوف نغلق.
وصاحب المقهى يلقي المقص من يده ويلوح لي مودعا.
وخلفي ينطفئ نور المقهى، ويغلق الباب.
أمام الكباريه كانت التكسيات، حيوانات كبيرة تنتظر الانطلاق.
دخلت من الباب الضيق!! نور وموسيقى عالية.
كانت هي تجلس على المائدة الأخيرة، تسوى شعرها الطويل والنور على وجهها يكتب أشياء مختلفة، ولكنه الوجه، نفس الوجه لا يتغير. جلست ولم أقل شيئًا.
أمسكت هي بالكأس وأخذت تحدق فيه والنور يسطع من خلاله، قالت:
ـ لماذا أتيت؟
ـ أنا أريدك.
ـ أنت.. حتى أنت أيضًا..
ـ أنا لا أكذ ب.
ـ الناس جميعًا لا تكذب.
وقامت من جواري، انطفأ النور وأضيء وتعرت امرأة لترقص.
عادت هي بعد قليل وفي يدها حقيبة وعلى كتفها بالطو:
ـ هيا بنا.
بعد أن صعدنا سلالم بيتي المظلمة كانت تلهث.
جلسنا في نور خافت على كنبة لينة ونظرت إليّ وقالت:
ـ اذهب، اغسل وجهك.. إنك متعب.
انتهت الليلة. انتهت..
كانت هي متعبة. وأنا أيضًا متعب. ولم نشعر بشيء.

ليس عندنا ما يقال

تركت يدي في يدها، ورحت أحدق في مجرى التيار. أحسست بها تتململ في مقعدها لكنني رحت أحرك السيجارة بين أصابعي.

طال بنا الصمت، وانطبعت خيوط المفرش البيضاء في عيوني.

ـ أظافرك اليوم ليست نظيفة؟

لم أقل شيئًا لكنني ابتسمت فابتسمت. عاد إلينا الصمت.

ـ ألن نقوم؟

غادرنا الكازينو وتركنا على المائدة فنجان قهوة نصف ممتلئ، وشفاطة في كوب ليمون محنية ومكسورة وعلى المفرش بقايا رماد.

كانت الساعة حوالى الثالثة. الشارع خالٍ وعلى جانبيه تراب. كم أود أن أتركك الآن يا عزيزتي. دعني أذهب. ليس عندنا ما يقال.

في جيبي منديل متسخ ومطوي في عناية، ملمسه غريب. أحدق في حذائي وأسمع وقع خطواتك إلى جواري.

في الليل سوف أذهب إلى الصحراء، سيكون القمر فوق الرمال. ستلمع أشجار الصبار الخضراء. لن يكون لخطواتي صوت.

انحنت صديقتي لتلتقط وردة ذابلة. رفعتها إليها في حنان أجوف. خطأ صغير يكفي لأن ينكشف الإنسان ويصبح عاريا. إنها ليست صديقتي. إنها بعيدة.نظراتها لزجة ومائعة.

في الليل سوف أذهب إلى الصحراء. سوف أبكي حبيبتي الضائعة التي أبحث عنها دائمًا ولن أجدها، حبيبتي أريد أن أذوب معك رقة، أن أبكي كل الدموع. والهول لي إذا استسلمت. لا للحلم. لا للحقيقة. فقط أريد أن أذهب إلى الصحراء وأبكي هناك حبيبتي الضائعة.

الشارع والشجيرات الصغيرة والأشجار الكبيرة والأوراق الجافة وصديقتي. والوردة الذابلة في يدها. والحنان الزائف. كل شيء يذوب عندكم.

كانت الساعة حوالى الثالثة. والشارع خال، شارع هادئ وجميل، للعشاق. ونحن نحب بعضنا. ألسنا نحب بعضنا؟

الحنان الزائف يذوب ككل شيء عندنا. لا.. لن أرد.. فقط لن أرد. ليتني أستطيع أن أسكت. اليوم لن أرد. لن أقول إننا نحب بعضنا، لا.. ليس الآن. لا أستطيع. حبيبتي الضائعة سوف أراها. سوف أمسك الخيوط التي تشدني إليها في قلب الصحراء الليلة، عندما تحيط بالقمر هالة من الضوء الخافت، ويهمس القمر بالنور. هناك سوف أجد حبيبتي الضائعة. حبيبتي التي لن أجدها أبدًا.. هناك..

طال بنا الصمت مرة أخرى، وتولد في نفس صديقتي التي تسير إلى جواري شيء ما طفح على وجهها.

إنه الملل.

تضيق بصمتي. تريدني أن أحدثها. أن أشد على يدها، تريدني أن أكون دافئا إلى جوارها. أنا يا صديقتي أكره الملل. أريد أن أكره الملل. بدأت أنا أخاف. لا تنفجري يا صديقتي. لا تقولي أشياء قاسية. دعيني أحلم. كوني رقيقة كما أنت. أنا أعرف أنني أحلم، كوني هادئة، يكفي أنك إلى جواري. لن أخذ منك شيئًا. إنك فقط إلى جواري. أحفظ يدك في يدى.

هذه يدك، وهأنذا أقبلها.
الهول لي ولكم.
ولامست أصابعها رقبتي. وانداح صوتها يدعوني:
«يا حبيبي».
- ما يعجبني فيك أنك لا تظلم أحدًا. إنك دائمًا تعطي أكثر مما تأخذ. كذاك أنت معي دائمًا تعطي أكثر مما تأخذ، كذلك أنت معي دائمًا رقيق وطيب. ستكون لي زوجًا رائعًا يا حبيبي.
أنا رقيق ورائع.
هناك شيء يجب أن يكسر. أن يتحطم. شيء يجب أن يحدث، هناك في وسط الصحراء سوف أبكي وأخبط أقدامي في الأرض قبل أن تأتي الجميلة حبيبتي الضائعة.
تأتي وتلفني في ثوبها الأبيض، تسير إلى الميدان.
أنسى روحي في ضوء القمر، اتركيني، اتركيني ودعيني أذهب فليس عندنا ما يقال.
- لن أستطيع أن أركب الأتوبيس من هنا. نسير إلى الميدان. أمي تقلق إذا تأخرت.
- لن تتأخري، ستركبين الأتوبيس من الميدان.
وقع خطواتها لا يزال جواري، والناس تملأ الشارع الذي نسير إليه. خطواتها لا تتردد، تدق في رأسي، مقدمة للنهاية التي لن تأتي، الشارع المزدحم يقترب، ونحن نسير إليه، على وجهها رضا وحماس. أنا مستلق على ظهري والنور يسطع في عيني. أريد أن أغلق عيني. لكنني لا أستطيع. النور يسطع في عيني. الشارع المزدحم يقترب، عربات وناس وعربات حمراء كبيرة تتلوى.
سأشتري علبة سجاير جديدة عندما تذهب.
- غدًا نلتقي في الثالثة.
- أجل غدًا في الثالثة.
الرجل الذي خبطني في كتفي لا يقصد شيئًا. أنا لا أقصد شيئًا. كل شيء مؤقت سينتهي هناك في الصحراء. عندما تأتي حبيبتي الضائعة. هنا لا وزن. لا وزن حتى للملل.
على وجهها حماس وأنا في ذراعها أسير. اختفت في الزحام. كان على وجهي ووجهها تعبير جاد ومتجهم.

هاني وهند

غربت الشمس، وبدأت الشوارع التي تحيط بالبيت الكبير، ذي الأدوار الثلاثة، تهدأ ويهجرها المارة، وراحت اللمبات الكهربائية تسقط نورها البارد باستمرار وانتظام فوق أسفلت الشوارع. لم يعد هناك مقياس للزمن.. فلا أحد يستطيع أن يشهد بمرور ساعة أو سنة، وساد المنطقة كلها صمت تام..

الشوارع مستقيمة، ونظيفة، وتحيط بالحديقة الواقعة في منتصف الميدان، تطل عليها مجموعة البيوت المجاورة، كلها بيوت ذات دورين أو ثلاثة، نوافذها طويلة، وجدرانها ضخمة، وطلاؤها قديم.

عندما خرج هو من غرفته رأى أن السطوح تمتد أمامه في سعة تحت نور شاحب. إنه الآن يستطيع أن يسير عدة خطوات غامضة يخطوها في السطوح حتى يصل إلى هناك، حيث الحائط المائل، والأعمدة الخشبية الطويلة، فيتكئ على السور ويغرز عينيه في الظلام.

كانت قمم الأشجار التي في الحديقة تتعاقد لتكون كتلة كبيرة من السواد. أوراقها متشابكة غزيرة، كلها خضراء، كأنها بحر يشد عينيه وكأنه لن يجد الراحة إلا هناك، كانت ثابتة لا تتحرك، والبرد قد انعقد فوقها في منتصف السماء. فليس هناك ريح والجو خال من الضباب.

أسرع يهبط درجات السلم المظلمة. كان بير السلم مليئًا بدخان يتصاعد من القاع. ولم يكن يتبين في عجلة النزول سوى الأبواب الزجاجية تلمع وكأنها أفواه لحيوانات غريبة. إلا أن خطواته كانت تعرف طريقها. وصل إلى الباب فتطلع حوله، وهو يعبر الشارع، وسار بخطوات سريعة نحو «الجنينة».

النجيل الأخضر بلله الندى فأكسبه لمعانا وبريقا، وسيقان الشجر هي الأخرى بيضاء ومستقيمة. والجنينة تمتد ساكنة وغارقة في الظلام، فدخل إليها.

إنه لا يستطيع أن يسمي هذا الذي هو فيه سوى النعيم. يجري، ويهبط التلال، وكل شيء حوله أخضر وسهل، ليس يحمل ذنبا أو شعورًا ثقيلًا، كم هو خفيف، لم يكن سوى طفل واسمه هنا: هاني..

كانت فروع الأشجار تتعانق وكرات صفراء صغيرة من ثمر النارنج تضيء ظلمة الأشجار، وكذلك زهور بيضاء صغيرة تناثرت تحت قدميه، تكلمه، وتميل سيقانها، فيجري وتصدح خطواته بالفرح.

رآه ولمس ماءه. الجدول البارد. وأحس طعم الماء النقي في فمه. فأشرق وجهه براحة وسعادة تكاد تنطق، كان وجهه جميلا مستديرًا، ينعكس كالقمر على سطح الماء، ورقد إلى جوار الجدول يلعب بأصابعه ويسمع تساقط القطرات الفضية على السطح الساكن كان لا يعرف الحدود. فكل ما يحيط به قد تداخل واستحال إلى نغم يستجمع أطرافه ليصل إلى قمته.. أطلت عليه من الشاطئ الآخر. رأى وجهها وثوبها الأبيض. وعندما رفع عينيه رأى حذاءها الفضي الصغير.

كانت تقف خفيفة على الأرض الخضراء بلا ثقل وقد انعقدت حولها هالة. أحس بابتسامتها في قلبه كأنها منقار يمامة، فكفت أصابعه عن العبث بالماء، تلاقت عيونهما ـ عبر الجدول ـ فعرف اسمها وناداها به.. هند.

* * *

كان يقول لها:

ـ لست أعرف ما أنا فيه. لم أذق مثل هذا من قبل.. ولم أعرف أنه موجود. كم أنت جميلة في كل شيء. كأنك نفسي. أنت كل ما أحببت. لماذا تبدو أصابعك هكذا غريبة. إنني أشعر بها في قلبي.. في روحي. تلمسني حيث لم يلمسني أحد. كأنك تعرفينني. كأنك جزء مني. هند كيف هذا..
تبتسم له، وتداري وجهها في كتفه لتقبل رقبته. ويملأ صوتها صدره وهي تتمتم بالحروف. ويحس بجوارها بأنه طفل تملأ جسده الصحة والسعادة. كانت تستلقي على الزرع الأخضر وترفع عينيها للسماء وتسأله.
ـ هاني، هل تحبني!
فيخفي رأسه في صدرها ويقول:
ـ أنت الأرض.. والسماء.. وأعرف أنك تشعرين..
ـ بماذا؟..
ـ بأنني أحس كل لحظة، أني أمشي فوق الماء.. وأنني معك أحلم بك. وأستنشق في كل لحظة هواء بكرا... إن الحياة إلى جوارك..
ـ أنت تريد شيئًا..
ـ أريد.. أريد أن أسير معك.. أن أدور.. وأن ألف بك كل مكان..
وكانا يسيران إلى ما لا نهاية. والأرض لا تنتهي، ويغني لها.
ـ سوف أذهب معك إلى هناك ولكن هل تريد..
كان مروعا بالحب في صوتها، يسمعها، ويتنفس رائحتها، فلم يجب، وأمسكته من يده إلى أن وصلا إلى الكشك المغطى بنبات أخضر رقيق.. زهوره الحمراء الصغيرة كأنها نجيمات متألقة، لم يكن في أرض الكشك سوى فراء أبيض كبير. جلسا عليه وغمرت وجهه بالقبلات لم تكن تتوقف لكي تكلمه ولكن كلماتها كانت مع قبلاتها بحرا رائعًا يسبح فيه..
تراها مليئة بالبريق. إنها في المنتصف بين فمي وفمك. هل..
ـ أنت لي، والحب بيننا جوهرة.
عندما التقى فمه بفمها لمس الجوهرة، أحس بها تتردد في حنان بين أسنانها البيضاء. وأسنانه تسبح بين لسانها ولسانه.
كانت جوهرة بيضاء مستديرة.. أشد نقاء من قلبه، أحبها واشتاق لها وكان يعطيها لها وتعطيها له ألف مرة.. وهي هناك دائما تولد مع كل قبلة.

* * *

عندما أراد هاني ذات مرة أن يترك هند لكي يتجول وحده في الجنينة شأن الرجال، وقفت أمامه تتطلع له في حب، كانت عيناها فوق جسده تودعانه قال لها:
ـ لن أغيب، إنها جولة صغيرة لست أدري بالضبط ماذا سأفعل، ولكنني محتاج لجولة صغيرة..
ـ شيء.. كان عليّ دائمًا أن أقوله لك دائمًا انسَ.. سأقول لك الآن قبل أن أودعك، ليس من المفروض أبدا أن تقول إنك أحببتني.. ليس من المفروض أن تبوح. ما سيحدث لو تكلمت عنا فظيع. هل تعرف.. سنفقد الجوهرة. لن نجدها. ستسقط من فمك وسوف أذهب أنا أيضًا.
ومسحت بيدها على شعره وكأنها تقول «أنا أعرف أنك لن تبوح» واكتسى وجهه بكبرياء، وودعها وانصرف. ظلت هي واقفة على مدخل الكشك تراقبه، يسير بقامته القصيرة في ممرات الجنينة. كان وقع خطواته الوحيدة غريبا. ولكنه كان يسير وهو يفكر أنه يريد أن يذهب بعيدًا، لكي يعود إليها، يقول لنفسه إنه مهما سار فسوف يصل إليها.. إنها دائمًا هناك.

لقد تكلمت، أنت تكلمت..
طأطأ الرأس في خجل، فقد عرف أنها عرفت، ولكنها دائمًا تستطيع أن تغفر، هكذا كان يفكر قبل أن يصل إليها ويرى وجهها الشاحب، لقد استندت إلى صدره قائمة وكان يبدو عليها الإرهاق، فاجأته فلم يستطع حتى أن يفكر.. أخذ يحاول أن يقول:
ـ قالوا لي.. أنت لو تكلمت.
ـ لا تعتذر.. أنا لا أملك الغفران، ولكن قبلني قبلني قبل أن يضيع الوقت. وعندما التقت شفته بشفتيها الباردتين.. لم يكن هناك وجود للجوهرة. وأحس بروحه تنخلع.

* * *

كان شكله مضحكا وغريبا وهو يتحرك هكذا في وسط أشجار الجنينة. وحوله كل شوارع الميدان وقد ملأها صراخ الناس والعربات والباعة. في مثل هذا الوقت من الصباح يكون كل الناس الذين يتحركون في الشوارع نشطين وذاهبين إلى أعمالهم.. وليس أحد مثله تائه يتخبط في أشجار الجنينة، لذلك فقد أسرع عائدًا إلى غرفته يملؤه الارتباك.

ثلاثة خطابات
إلى حبيبة مجهولة

صديقتي:
أزرع هنا في حديقتي كل ما أستطيع، كل الأشجار تموت. لا شيء يريد أن ينمو، منذ أن افترقنا، وأنا أفكر في اللقاء لصوتك ـ أو ربما لوجهك ـ رائحة غريبة وأنت تهمسين:
ـ غدا نلتقي في المساء.
أنت تعرفين أنني أحب لقاءك. أنت تعرفين أنني لا أكره شيئًا سوى أن تمر عليّ ليلة دون أن ألقاك.
اللقاء يا عزيزتي صعب. لن أستطيع أن أخرج لك الليلة.
ستنتظرين في نفس المكان الذي افترقنا فيه، تسمعين صوت الضفادع. تبردين. تراقبين النجوم، لكنني لن آتي.
إنها الآن ساعة الفجر. أنت لا تزالين في مكانك. هل تعبت أقدامك؟ هل ترتدين الآن ثوبك الأبيض؟
ليس من حقنا أن نبكي مهما بلغت بنا الوحدة أو قسوة الأشياء. كل الأشياء يجب أن تظل في داخلنا لا يتسرب شيء إلى الخارج. كل شيء يضيع عندما يصبح في الخارج. لذلك رغم كل شيء فلعله من الأفضل أنني هنا ولا أستطيع الخروج إليك.
الرد:
صديقي:
انتظرتك، طبعا لم تأت، وصلني خطابك. لم لا تأتي. أريد أن أراك.
صديقتي.
إذا كنا ضعافا هكذا فماذا يأكل الأسد؟ من الذي يحيى جذوة الحياة؟ من يرقب الشجر؟ علينا أن نعيش كثيرًا لكي نموت غدا! كم أريد أن أخرج من هذه القلعة. من وضعني هنا!
رأيتك أمس في المنام وكنت جميلة، حاولت أن أمسك بك ولكنك كنت سحابة من دخان.
لماذا لا أجد الأرض أبدًا تحت قدمي، لماذا تسقط قدمي في حفرة كلما أردت نقلها.
لماذا يسقط قلبي ونصف جسدي في الفراغ كلما أردت أن أتحرك.
من هنا نبدأ. يجب أولاً أن نعرف ماذا يعني الفراغ؟ لكن كل شيء ينغلق وتستحيل الرؤية. تصبح الدنيا صندوق خشب قديم تحيطه الأعشاب الجافة والخضراء. يسكن في الصندوق معي فأر صغير يحاول أن يأكل أطرافي.
هل تريدين أن أروي لك حكايتي مرة أخرى، لقد رويتها لك مئات المرات. أنا مثلهم جميعًا. فقدت في البحر شيئًا. بعد ذلك فرض عليّ العقاب. عقاب لا أدري متى بدأ ولا أين ينتهي. أنا هنا لكي أكفر عن الشيء الذي فقدته. وليس لي إلا الحق في أن أكتب لك. أعرف أنني لن ألتقي بك.
أعرف أن جسدي لن يذوب يوما في جسدك.
ولكنني أحب وأكتب.
قالوا لي قبل أن يحبسوني في القلعة.
ـ ازرع.

أنا أزرع ولا شيء يريد أن ينمو. الأرض تأكل البذور. يعرفون هذا ويضحكون مني. أقول لك هذا وأشكو. قولي لهم: إنه يريد أن يزرع. أريد أن أرى نباتي ينمو. أنت حبيبتي فقولي لهم هذا.
شيء آخر أريدك أن تعرفيه أنت لي: هل تنمو بذور الآخرين؟
الرد:
صديقي:
كم اشتقت لك. عرفت كل شيء.. لا بد أن نلتقي.. حبي.
صديقتي:
الليلة أكتب لك بعد يوم غريب. كنت طول النهار أنتظر شيئًا يحدث، من الصباح والشمس نصف قرص أحمر مخنوق، قبل الظهيرة امتلأت الحديقة وشرفات القلعة بطيور سوداء صغيرة.تصرخ وأنا أشير لها كي تسكت لكنها كانت تستمر في العويل والصراخ مقتربة من وجهي، الذي كان العرق ينزف منه، وفجأة سكتت الطيور وحطت على الأرض وأخذت عيونها البيضاء تتحرك في كل اتجاه وأجسامها الصغيرة ثابتة وكأنها تماثيل صغيرة.
الأرض والجدران كلها مزروعة بهذه الطيور. الصمت معلق فوق المكان كله. فُتح باب الحديقة الحديدي الكبير ودخل منه رجل لم أستطع أن أتبين منه سوى حذائه الأبيض، أما وجهه وجسده كله فكان مغطى بعباءة سوداء.
وقف الرجل أمامي. كان يدوس على الطيور السوداء فلا تصرخ، كانت تختفي في الأرض. جلس على دكة من الحجر. وضع ساقا على ساق. أخذ يحرك حذاءه الأبيض في هدوء. كأنني كنت أتوقع كل هذا. كنت صامتا ولم أنفعل. استندت على عصا في يدى. واقتربت من الدكة التي يجلس عليها الرجل، وأخذت أصفر بلحن قديم.
أخيرًا وبعد صمت طويل كنت أشعر خلاله أن عيون الرجل التي لا أراها تحدق في، بدأ يتكلم. صوته يشبه صوت الطيور التي كانت منذ لحظات تعوي وتصرخ.
قال:
عرفنا أن لك عشيقة. كلنا عرفنا ذلك. عرفنا أنك ترسل لها خطابات. ضحك فطارت الطيور من على الأرض ثم سقطت مرة أخرى جامدة لا تتحرك. عاد صوته الذي يشبه النقيق يدوي في المكان:
ـ هذا من حقك. قلنا لك هذا من حقك، ولكننا لاحظنا أخيرًا أن أسئلتك بدأت تصبح سخيفة. مالك أنت وبذور الآخرين؟ لماذا تسأل عنها؟ أجب لماذا تسأل عن بذور الآخرين.
قام واقفا، وأخذ ينفض بيديه التراب الذي كسا مؤخرته من المقعد الحجري الذي كان يجلس عليه. وبدا أن الصمت سوف يطول. كنت أنا قد قررت ألا أجيب. قال:
ـ أعرف أنك لن تجيب. فأنت لا تعرف لماذا تسأل. كنت أسمع كلامه وقد بدا أنه لو تكلم أكثر من هذا لانفجرت ضاحكا. أصبح صوته يشبه أصوات الأبواب القديمة وهي تفتح. وبدأت أفكر هل هو رجل أم امرأة؟
أخيرًا بدأ يأخذ طريقه ناحية الباب وقبل أن يصل بخطوات استدار وقال:
ـ أنت تعرف أنك لن تخرج من هنا حتى تحول كل هذه الأرض إلى أشجار خضراء. أنت تعرف هذا، فأنصحك أن تلتفت إلى عملك وتبدأ في الزراعة.
أشار بيده إلى كل الطيور لتتجه ناحية الباب فتحركت لتسبقه هناك.
عادت الحديقة يا صديقتي والقلعة كلها إلى الصمت. اتجهت أنا إلى المعقد الحجري وجلست عليه.

أفكر في أمرك. وفي حبي الذي أخفيه لك.
قمت وأخذت أتجول في الأرض الجافة. كنت أحدق في الشقوق وأنحني لكي ألمس الأرض.
صديقتي. هذا هو ما حدث اليوم فهل تريدين بعد ذلك أن أواصل الكتابة لك. لا أدري.

أهم شيء في العالم

كان يجب أن تسافر، أن ترحل إلى أرض بعيدة وتتركني هنا.
تقرر كل شيء فجأة.
قررت هي، وكانت يومها حزينة، تحت شمس خريف باهت: أن ترحل وتتركني:
يدها كانت فوق رأسي، ورأسي على فخذها، وباقي جسدي ممدد في الرمال، عيناها الخضراوان العميقتان كانتا سارحتين في اللون الأصفر الذي يختلط هناك في الأفق البعيد بلون السماء.
لم تكن تتكلم. كأنها تسمع موسيقى بعيدة في خيالها. كانت قد أعلنت بكل ما تستطيع أنها تحبني، وقررت رغم ذلك أن تدعني وحدي وتذهب. في خفايا عقلها تلافيف داكنة لا أستطيع أن أرى ما حدث فيها.
مشاعرها. كلماتها. جسدها، تمتد أمامي دائمًا كأنها سهول خضراء شاسعة تدعوني إليها. حدث هناك في مكان ما في عقلها عملية غريبة معقدة قررت بناء عليها أن تتركني وترحل.
كم أخاف الوحدة التي أنا فيها الآن. أخافها وأكرهها لكنني أعرف أنها حياتي. دائمًا أعود لأتذكر. لكي أعذب نفسي، ليس هناك مفر. ستظل الذكرى إلى الأبد.
كانت رمال غريبة، ناعمة جدا، تركنا فيها آثار أقدامنا. آثار كبيرة منكوشة تقلق سكون الرمال، فرشت هي «البطانية» الملونة الصغيرة على الرمل، جلست تبتسم لي في سكون. كانت تدعوني لكي أجلس. وجهها كان ساكنا، وساقاها نقيتان، جميلتان، فأخذتها إلى صدري.
الخريف على حافة الرمال يداعب أغصانا جافة لشجر طويل أعرفه. قالت لي إنها أحست معي أنها في بيتها. إنها لم تعد غريبة. قبلت على وقع أصابعي في جسدها كل شيء. الحياة والناس صارت أشياء مقبولة لا غرابة فيها كنمو النبات وطلوع الشمس.
أكره الوحدة. أرفض أن أبقى هكذا. الذكرى تؤلم. الصور الكثيرة تتداعى كوقع أقدام لص في بيت ساكن. الذكرى قوية ولا يحيط بها إلا الصمت فدعها تسقط، دع الذكرى تسقط.. ولتكن حياة.
المائدة الخشبية الصغيرة التي تفصلنا، مزروعة في لحمى تؤكد المسافة التي تبعدنا، أنا.. كل ما أريده أن أنضم إليها، أن أذوب في صدرها.
تبتسم لي، تدعوني، تبدو أنها بعيدة عالية بين السحاب. عيونها تعلن أنها تحبني، حبي يسعدها. الطعام الذي أكلناه كان ساخنا، نظيفا وغسل لنا غلام صغير أيدينا، تركنا الماء تجففه نسمات هواء.
انتعشت على لسانها حكايات كثيرة. في أذني شوق كبير لسماعها، طفل تقوده كلماتها إلى أرض مسحورة تهمس بأغان ترقص لها شعيرات دمي.
تصمت فتتركني وسط واحة من حضورها المطمئن. أحدق في وجهها الساكن فأرى الدنيا خلف هذا الوجه طيبة وجميلة.
يحضر لنا الجرسون «صينية» القهوة. يصب فنجانين كاملين عليهما «وش ثقيل» بين الفناجين كوب من الماء البارد..
قلت..
ـ حاسبي تهزي القهوة.
انتبهت، وابتسمت، عندما تعرفت على جمال الفناجين وفرحي بهما.

الساعة تقارب الرابعة، شاطئ «أبو قير»، تمتد رماله الهادئة تحت شمس الخريف مسترخية. الموجات تصل إليه كسولة، ثم تعود مخلفة رطوبة غامقة وزبدا أبيض.
داعبت يدي شعرها في صمت لنقوم، تسير إلى جواري. بدأ صوت المدينة التي نقبل عليها يفصل بيننا، ليغرق كل منا في نفسه أكثر. ليعود في النهاية يذكر قرار الرحيل.
كان شبح هذا القرار يفصلنا ظاهريا، ويربطنا في الواقع بثقل وجودنا الواحد المشترك. كأننا شجرة تفرعت قرب الأرض إلى فرعين كبيرين غليظين. في قمة كل فرع أوراق خضراء سعيدة تهتز، وهي لا تدري بملمس الساق الخشن.
أولاد يجرون في الشوارع. صغار يشمرون عن سيقانهم الرفيعة، يسيرون بنفس الأقدام الصغيرة فوق الأسفلت، وفوق الرمال. أتوبيس كبير خال. عربة بيضاء مسرعة، شعر امرأة شقراء، كلب أسمر يطل من عربة، وأصوات أخرى. أصوات مدينة، وقرية، وشاطئ، ورائحة سمك. إعلان عن البيرة ومفرش ملون يطير من فوق مائدة، وبلاط فوقه ذرات رمال.
كان الحديث يبدو كأنه عادة قديمة نسيناها، الصور التي نراها وسيلتنا الوحيدة للتفاهم.
قبضت على يدها الصغيرة وسألتها:
ـ تحبي نقعد؟!
تعلقت عيونها بوجهي، هزت رأسها.
الكازينو القريب، يرتفع بعدة سلالم عن الشاطئ وقد امتلأت الترابيزات التي تعلوها شمسيات ملونة مستديرة. سارت إلى جواري نتلوى وسط المقاعد والمناضد الخالية حتى وصلنا إلى واحدة بعيدة قريبة من جدار صغير، وضعت على الجدار قدمي، ودفعت الكرسي إلى الخلف.
البحر يبدو كبيرًا جدا. وواسعًا، في نهاية الأفق عدد كبير من القوارب الصغيرة. فردت الشراع الأبيض اللامع. تحت الجدار مباشرة تجلس امرأة سمينة، نفضت عنها الملاءة السوداء. وعرت ساقين سميكتين. يلعب حولها طفلان هزيلان. وكوبري من الخشب القديم المتآكل يمتد لعدة أمتار داخل البحر ثم ينتهي إلى لا شيء.
أحضر جرسون آخر فنجاني القهوة ووضعهما على الترابيزة وأخرجت هي مجلة من شنطتها ونشرتها أمام وجهها، غابت عيونها عني تجري وراء الكلمات.
رحت أنا أراقب قلعة «نيلسون» القديمة، والشمس تنسحب من فوق جدرانها.
قالت:
ـ الناس دي بتحرق نفسها ليه؟
لمحت في المجلة صورة لأحد البوذيين وقد أشعل النار في نفسه. لم يكن هناك شيء واضح في الصورة. مجموعة ظلال يطل منها معنى غريب يخترق صدري.
تتكلم كأنها غائبة.. كلمات كأنها بقع ألوان تتلاشى في الأفق وتذوب. ويسقط علينا مرة أخرى نفس الصمت.
أغلقت المجلة ووضعتها على المائدة، لتضع بيننا مرة أخرى ثقل قرارها القديم. راحت تدق بأصابعها الترابيزة. وتتحرك فوق مقعدها.
قلت بلا مناسبة:
ـ أهم حاجة، إنك تعرفي تبقي سعيدة.
ـ أهم حاجة..؟
ـ سعيدة، زى ما احنا دلوقتي، سعيدة بالدنيا.

تلفتت حولها بسرعة لترى الرمل، والبحر، وقرص الشمس، وفنجان القهوة في يدها وقد انسكب بعض منه في الطبق.
ـ إنتي مسافرة ليه؟
ارتعش الفنجان في يدها، نظرت بين عينيّ.
أدرت وجهي كأنني ارتكبت خطأ، لا أريد أن أراها، وجهها متقلص جاف.
وجاء صوتها:
ـ عايزة، أطلب منك حاجة، توعدني؟
ـ أيوه..
ـ مش تعرف إيه هي الأول.
ـ لا.
النهاردة مش عايزاك تسيبني. من دلوقتي لغاية آخر دقيقة.
انحبس شيء في حلقي.
ـ إيه أهم حاجة في الدنيا؟
ـ أهم حاجة في الدنيا!
كانت مجموعة بعيدة من الأشرعة البيضاء تتشابك أمام خلفية من اللون الشاحب، تتلاقى وتهتز أمام عينيّ لتوقعني في خدر لذيذ يسرى من أول أقدامي الباردة، إلى شعر رأسي الذي تتخلله نسمات الغروب.
ـ أهم حاجة أنك ما تدلقيش القهوة.

* * *

العاصفة

قمم الأشجار هادئة، الظلام يدور حول البيت ونجمات بعيدة تسطع في السماء.
تأتي من الشمال ريح رقيقة تحرك أوراق الأشجار فتميل لتلامس شباك غرفته المطل على الناحية الشرقية.
عيونه مفتوحة لا يرى شيئًا ويسمع تنفس زوجته المنتظم.
في صالة بيتة أثاث قديم. يسقط ظلالًا رقيقة لما يقع عليه ضوء اللمبة الصغيرة المعلقة فوق السقف.
أوراق الأشجار تداعب الشباك، أصابع رقيقة تداعب الشباك. تداعب وجهه، تناديه وتحمله إليّ..
تحمله إليّ.. إنه ينفصل.. يبعد. تحمله الأوراق، وصوت الأوراق، يحمله وحده.
استأذن صوت الأوراق وتحرك. نام على ظهره، فتح عينيه في الظلام.
لم يستيقظ الليلة؟!
الأولاد نائمون. الزوجة نائمة وغدا في الصباح ينتظره العمل والأوراق.. أوراق أخرى بيضاء ميتة لا تتحرك. تزحف.
خمسون عاما مع الأوراق البيضاء في النهار، وفي الليل هنا يسمع الأوراق في الشباك..
كل اللحظات قصيرة، الليلة سوف تدوم.. ليس في هذه الليلة لحظات.. إنها ليست كغيرها.. وليس لها أبدًا نهاية..
تاهت عيونه يوما وهو ينظر إلى الصحراء وتمنى أن يصل إلى شيء أن يرى شيئًا، لكن الصحراء كانت صحراء.. وارتد بصره إلى مقدمة حذائه..
تاهت عيونه يومًا، وهو ينظر إلى البحر، وتمنى أن يصل إلى شيء. أن يرى شيئًا. ولكن الماء كان ماء، ولونه أزرق. ناداه طفله الصغير، فارتد بصره إلى الشاطئ..
صوت الأوراق يتغير، وتنفس زوجته لا يتغير.. النور الضئيل في الصالة ثابت، ثابت، وعيونه محدقة في ظلام رقيق خال من الأشباح. لون الملاءة أبيض.
أعوام خمسون كلها لحظات قصيرة. لم يعرف فيها سوى السطح، بضعة سنتيمترات تحت السطح.
لم أستيقظ الليلة؟
الأولاد نائمون والزوجة نائمة، وغدًا في الصباح ينتظره العمل والأوراق الميتة البيضاء التي تزحف.
شرب الشاي ونام ونامت زوجته تمامًا كما يفعلان كل مساء، انطفأ نور البيت ونام الأولاد.. للبيت نفس الرائحة التي له منذ أعوام وأعوام. ولزوجته نفس الرائحة التي لها منذ أعوام وأعوام.
لم أستيقظ الليلة؟!.. ولم يسمع كل هذا الصمت؟.. كل هذه الأسرار والأوراق التي تداعب الشباك.
علت دقات قلبه، وداعبت الأوراق الشباك مرة أخرى ثم سكتت وضاقت دائرة الصمت وتوقف كل شيء.
هنا. الآن. الليلة. وسط كل هذا الصمت والظلام، سوف يحدث الشيء.. خمسون عامًا ينتظر الشيء.. ينتظر الشيء أن يحدث. أن يتحقق. أولاد. وزوجة وبيت ومدارس. هو ينتظر الشيء أن يحدث.. لكنه لا يحدث.. الصمت والأوراق..
ظل الأثاث القديم. الشباك والظلام والأسرار والأنفاس المنتظمة. إنه ينتظر الشيء. واللمبة الصغيرة قرب السقف.

خمسون عامًا. وشعر أبيض، وعروق في اليد.. وجبهة كبيرة وصمت.
انتفض من السرير واقفًا، عندما رأى البيت كله مضاء بنور البرق، كل الشبابيك كانت تنتفض.
عندما وصل إلى باب الغرفة كانت زوجته لا تزال تتقلب في السرير، وتفتح عيونها:
ـ ماذا حدث؟
مدت يدها نحوه، ولكنها لم تجده.
ـ ماذا حدث.. أين أنت؟
اندفع في صدرها فزع. الأبواب تصطك والشبابيك ترتعش، وصوت الأشجار في الخارج يئن.
زوجها ذهب، ليس إلى جوارها. وصرخت:
ـ عاصفة. أين أنت؟
كانت تتحسس رأسها وملابسها عندما لمحت جلبابه الأبيض يتحرك في الصالة.
في وسط الصالة وقف ينظر إلى السقف، يراقب اللمبة الصغيرة تهتز وتتحرك مسحورًا مبهورًا وكل ينابيع السعادة قد تفجرت فيه. خمسون عاما من السعادة.
الأولاد نائمون، والزوجة نائمة وكل شيء سوف يحدث الآن.
اندفع نحو الباب الحديدي الكبير وفتحه، وقف في الخارج طويلًا رائعًا.. جلبابه يطير وشعره الأبيض جن من الفرح.
في الخارج كانت الريح تقول كل شيء. كانت الأشجار تنحني وتميل ثم تعود لترتعش وتميل من جديد.
خمسون عامًا، خمسون عامًا. دع الريح تأكل كل ما تريد.. بعض حبات القمح وتبن كثير.
هذه ليلة الزفاف، الأفراح كل الأفراح. الأشجار تفرح. وكل شيء يبدأ من جديد.
كانت الزوجة تقف في داخل الصالة يداها على شعرها، وجسدها ينتفض، الريح تأكل صوتها وهي تصرخ:
ـ ادخل. ادخل.
ولم يسمع.
الأحلام تحمله وتدور به.
ـ ألن تدخل. البيت يكاد يطير.
ـ أشجاري. عائلتي تفرح معي، الأشجار، تفرح معي..
كان الجلباب الأبيض منفوخا كبيرا يتوارى خلف الأشجار وهو يجري ويقف وسط هذه الأفراح.
دفعت الزوجة الباب الحديدي تريد أن تغلقه، وأطلت برأسها تناديه للمرة الأخيرة..
ـ ادخل يا زوجي، ادخل، العاصفة شديدة وقدماك ضعيفتان.
رد عليها من بعيد وفي صوته غناء:
ـ دعيها تهب. أريدها أن تهب.. أريدها أن تهب.
عاد صوتها يسأل:
ـ والأولاد ماذا أقول لهم عندما يسألون عنك.
ـ قولي لهم إنه خرج مع العاصفة وأنتم نائمون.
واختفى شبحه الأبيض وسط الأشجار.

يا إلهي البيت بارد..

عندما فتحت الشباك اختلط لون الغروب بخضرة الزرع، الشجيرات البعيدة تساقط منها الورق عندما صفعها الهواء البارد.
شفق أحمر بلون الدم، قرص مدفون في مسطح أخضر، وأنا خلف الشباك، أرجو أن ينتهي هذا الشيء الحزين.
في الليل أستريح، في الليل فقط يصبح لخوفي ووحدتي حدود.
متى يأتي الليل حتى أستطيع أن أنتظر مرة أخرى الصباح!!
وأما الآن وأنا أرقب الشمس تموت فكل شيء يزدحم أمامي ويتدافع، كل الأشياء لا تريد أن تفوتها هذه الفرصة.
تكاد تخنقني المشاعر، تشل قدرتي الواهنة على التمييز، أعرف أن كل الماضي سوف ينهار ليصبح حاضرًا. ويطلق الصرخات البكماء في صدري.
أنا أعرف أنني لن أصرخ، ومتى صرخت؟ للصراخ ناس آخرون غيرنا، أنا لا أصرخ، ولا أضحك. كل شيء يذوب ويصبح بلا حدود ولا لون ويختلط بلون نفسي.
شباك بيتي حديد وعلى الحديد تغزل أمامي قصتي، أنا إلى جوارها أرقبها، أرقب القصة وأرقب الشمس وأرقب الغروب.
الشباك يطل على الحقول، ويطل أيضًا على حافة القرية بيوت تكلم بعضها بعضًا، مائلة. تنام في الليل وتهمس طول النهار، عند حافة القرية مقهى، وشجرة لبلاب والشباك الآخر يطل على البحر، على الترعة الكبيرة، النبات الأخضر على جانبي الترعة كثيف ولامع، يشد كل روحي عندما أنظر إليه.
شباك هنا. وشباك هناك. شرق وغرب. البيت صحي كبير. بيت قديم. بيت أبي وجدي. والآن بيتي والأرض التي حوله ملكي. أنا عليها المالك الأبيض البدين. أنا بدين وأبيض. ووحيد.
أمامي حقول وخلفي بيت مظلم ساكن، النور ينسحب منه وتصبح قطع الأثاث أشباحًا لا تخيف، أشباحًا عادية، ساكنة.
أنا البدين الأبيض، ألمس وجهي، أكتشف أن على شفتي ابتسامة.
عندما كنت في الكلية، كلية الزراعة، كنت في كلية الزراعة ها.ها. ها! كنت وحيدًا وغنيًّا. وكان لي صديق. وأبي كان لا يزال يسكن هذا البيت. يرسل لي النقود. ويسكر. كنت أعرف أنه يسكر، كنت أرقب الوحدة الكبيرة تسعى إليّ، كنت أعرف أنه سيموت، كنت أعرف أني سأكون مثله. مالكًا أبيض سمينًا يسكر، ومات وأصبحت مثله ولكنني لا أسكر.
كيف يسكر من يحلم؟، إنه حلم، أنا أحلم حلمًا طويلاً ولن ينتهي. سأطل من الشباك إلى الشباك. من البحر إلى حافة القرية.
ما حدث أمس لم يوقظني، عندما قال لي الرجل إنه قتلها لم أستيقظ، عندما قال لي إنه قتلها. وداعب شاربه لم أستيقظ. هل أنا ميت؟ إنني أبتسم. لا يمكن أن أكون قد مت.
متي يموت الإنسان، كيف يشعر أنه مات.
من كان مثلي لا يموت، هذا هو الجمال، هو العذاب، وهو الغرابة.
صديقي الذي كان معي في الكلية كان صاحب صوت عريض، الآن قد تزوج وأنجب ثلاثة. قال لي:

ـ ماذا دهاك الليلة؟
ـ الليلة؟. أبدًا. لماذا. أنا. لا ولكن.
أتكلم هكذا دائمًا، كلمات متقطعة. كنت أتكلم هكذا دائمًا كلمات متقطعة في تلك الأيام التي كنت أتكلم فيها.
ـ الليلة؟. أبدًا. لماذا. أنا. لا. ولكن.
ـ أنا لا أطيق أن أراك هكذا. أنت تدفن الأشياء تحت لحمك الغزير.
ابتسمت له، فغضب، وقال:
ـ ألن تتكلم أبدًا، ألن تنطق أبدًا. أنا صديقك منذ سنوات وأنت لا تتكلم، هل يجب أن أحرقك بالنار حتى تتكلم.
كان يهزني من كتفي، ويهز رأسه، ثم اعتراه اليأس.
كانت هذه هي المرة الأخيرة التي يهزني فيها من كتفي إنسان ويومها لم أتكلم، راحت مني الفرصة.
أرى يده تمتد نحوي تحاول أن تهزني، لكنني الآن بدين وأبيض. حتى الشيء الذي حدث أمس لم يهزني.
كانت خادمتي، تغسل كل ملابسي تعد لي الطعام.
كانت تدلك لي قدمي في البرد وتروي لي حكايات القرية، أقول لها أحضري لي هذا الكتاب، أغلقى هذا الباب، ارفعي هذه الأطباق، كانت تتعثر في ثوبها الأسود الطويل وهي تذهب وتجيء في الصالة وفي المطبخ وفي الطرقات.
لها أنف دقيق، وقدمان كبيرتان. عيونها صغيرة، وعلى جبهتها خصلة شعر أسود.
قالت لي قبل أن تموت بأيام، وهي تقف إلى جوار الكرسي الكبير الذي أجلس عليه.
ـ إنهم يبيعون القطن في القرية يا سيدي، ويذكرون فضلك وكرمك، سمعتهم وأنا أشتري من البقال، وعندما عرفوا أنني واقفة قالوا لي: احملي شكرنا إلى السيد.
كانت تبتسم وكان في وجهها فخر، ومضيت أنا أقرأ في الكتاب. وظلت واقفة فترة وكأنها تدعو لي ثم انصرفت.
عندما طرق أخوها الباب أمس كنت أقرأ وكانت هي في المطبخ. جاء إليّ وقال:
ـ أختي جاءها عريس وسوف تتزوج.
وكأن ذبابة عبرت أمام وجهي وقلت له:
ـ متى؟
ـ سوف آخذها الليلة، فعندنا تبدأ الاستعدادات مبكرة.
خرجت معه، كل هذا حدث أمس فقط. بيننا وبينه غروب كهذا. احتفال حزين كهذا الذي أشهده. كل شيء يبدأ دائمًا صغيرًا ثم يكبر.
عندما خرجت قبلت يدي. انحنى جسدها الطويل وقبلت يدى وهي تكبت شيئًا ظننته بكاء. كدت ساعتها أن أرتعش. كادت لمسة شفتيها على ظهر يدى توقظ شيئًا في لكنني سحبت يدي. كما انسحبت من المرأة التي قالت في القاهرة وأنا طالب:
ـ أريد أن أتزوجك.
كانت تأتي إلى شقتي الكبيرة في القاهرة، لم تكن تأتي إلا إليّ أنا. كانت موظفة وتضع كحلًا ملونًا. قدمها لي صديقي ذو الصوت العريض وبدأت تزورني كل عصر. كانت تغلق النوافذ بنفسها.

وكانت تقبلني وتلصق جسدها بجسدي البدين الأبيض. كنت ألمس ظهرها وأمر بأصابعي على شعرها. قالت لي: أنا أريد أن أتزوجك. وأطفأت نور الحجرة. انسحبت أنا، كنت أعرف أنني يجب أن أبقى وحيدًا. كانت الحياة مرسومة أمامي ولم أكن أملك ما أغيرها به.
شيء بارع. رائع. جميل وهاج. لم يوجد ولن يوجد. شيء بارع. رائع. جميل وهاج. جوهرة ناقصة في التاج، وبدونها لن يشع أبدًا بريق. وسوف تغرب الشمس وتنطفئ الألوان من الحقول قبل أن يشرق هذا الشيء الرائع. البارع. الجميل. الوهاج.
قتلت. ماتت. جثتها الآن في الماء.
خادمتي.
بعد أن خرجت راقبتها هي وأخاها وثلاثة رجال يسيرون في الطريق ينبعث خلفهم تراب. كان هي كتلة سوداء.
خادمتي!!
جلاليبهم ملونة. من الشباك رأيتهم وهم يجلسون في المقهى تحت شجرة اللبلاب. يتهامسون. اجتمعت رءوسهم. وعرفت أن شيئًا ما سوف يحدث، كانت خادمتي تجلس كومة من السواد إلى جوار المقهى. وهم يتهامسون. وراح واحد وجاء. وأنا في الشباك. وبعد أن جاء قاموا جميعًا. جلاليبهم الملونة وجلبابها الأسود. أمسكت بحديد الشباك. كان الحديد باردًا. واختفت جلاليبهم الملونة وجلبابها الأسود. كانت الشمس تغرب.
شمس الأمس تغرب. عرفت أن الشمس لن تكون أبدًا مرة أخرى كهذه الشمس. سوف تكون دائمًا ملونة بالدم.
اختفى جلبابها الأسود وجلاليبهم الملونة في قرص الشمس. ابتلعهم قرص الشمس وسقط.
أغلقت النافذة. هذه النافذة أغلقتها أمس بعد أن غربت الشمس. ذهبت إلى سريري الأبيض. كان السرير باردًا، كان في السقف برص صغير يجري، صوته يصر في زاعقًا بشيء معين لم أفهمه ولكنني لم أنم.
الليلة الماضية. لم أنم!
ذهبت إلى الشباك الآخر في الناحية الشرقية، الشباك الذي يطل على الترعة، كانت الدنيا ظلامًا ولم يكن هناك سوى شراع أبيض صغير راحل.
لم يكن هناك في الظلام سوى الشراع الأبيض الراحل. أغلقت الشباك. وانتظرت حتى الفجر.
في الفجر سمعت طرقات على الباب. نظرت إلى الشباك وكان أخوها يقف على الباب. والندى لا يزال يبلل أوراق الشجر.
قال:
- أريد أن أدخل لكي آخذ ملابسها وبقية المرتب. إنها ماتت. قتلناها. وأثرها يجب أن يختفي.
الآن سقطت الشمس.
غربت.
سوف أغلق النافذة.
يا إلهي. البيت بارد!!

طعام وشراب

سكن إلى جوارنا جار جديد. لم أر له عفشًا يدخل. كما لم أر له زوجة أو أطفالاً.
ضوء خافت وحيد كان يبقى مضاء ليلًا ونهارًا، في صالة الشقة وعلى الباب لافتة نحاسية قديمة مكتوب عليها ـ عجيب غريب. أستاذ في الكيمياء.
كنت أمر على الشقة كل ليلة وأنا ذاهب لشراء الخبز لأسرتي من الفرن المجاور.. أتلكأ أمام الزجاج الأصفر على باب شقته والضوء الخافت يجذبني فلا أسمع صوتًا. قد أسمع حركة أقدامه. قد أسمع صوت صنبور مفتوح. لكنني لم أسمع شيئًا آخر.
وأنا عائد من مشوار العيش. أحمل خبزًا ساخنًا، كنت أتوقف مرة أخرى عند الزجاج الأصفر، لكنني لم أحصل على إجابة. عندما كنت أسأل من هم أكبر مني، أبي أو أخي أو بعض الجيران مثلًا.. كنت أشعر بهم يتهربون من السؤال ويتعمدون تغيير الموضوع:
في ليلة من ليالي أغسطس الحارة، وجدت الزجاج الأصفر مفتوحا، ومن خلال حديد الباب رأيته يتحرك داخل الشقة المعتمة كان يرتدي ملابس غريبة، شيء بين الجلابية وقميص المجانين أو الأطباء. كنت عائدًا أحمل الخبز الساخن. اقترب من الحديد وقال بصوت له صدى في الشقة الفارغة..
ـ هل يمكن أن تبيع لي رغيفًا..
قلت ـ هذا خبز العشاء والإفطار لأسرتي.. لكنني أستطيع أن أعطيك الرغيف الذي يخصني..
تناول الرغيف مني. وابتسم ابتسامة شيقة جميلة. وعاد إلى الخفاء. عاد الزجاج الأصفر يحجب عني كل شيء.
ذات يوم وأنا أحاول التلصص بعيوني وآذاني عبر الزجاج عبر الزجاج. فتح لي الباب فجأة، قال بنفس الصوت المحايد القديم.
ـ لماذا لم تطرق الباب؟
ـ أنت لا تفتح لأحد.
ـ وهل طرقت؟ ادخل. لماذا لا تدخل؟
في وسط الصالة كانت مائدته كبيرة.. عليها جهاز يشبه الميكروسكوب وأكواب مختلفة الأحجام، فيها ماء.
لم أضع وقتًا، وسألت ماذا تفعل.
قال:
ـ أبحث في الماء. هل تريد أن ترى؟
قادني إلى الجهاز. وضعت عيني فرأيت أشياء غريبة.. مخلوقات صغيرة كثيرة تتقاتل في ضراوة.. كائنات تقطع أذرع بعضها، وتجز الرقبة، وتقطع الألسنة، أكوام من الأذرع الصغيرة وأكوام من الأرجل المقطوعة، كائنات تهشم رءوسًا صغيرة.
رفعت رأسي في فزع.. قال:
ـ هل تعرف ماذا رأيت..
قلت:
ـ شيء بشع.
قال:

لا، بل نقطة ماء.
قلت:
لن أشرب بعد اليوم..
بل ستشرب عندما يستبد بك العطش.
وخرجت مسرعًا.

في بطن الحـوت

لم يكن أحد منا في الفصل يعرف مدى ثراء الأخوين: رجب: حسين وإبراهيم، فقد كانا صامتين متباعدين، وكان في انضباطهما، والتزامهما للسلوك الطيب ما يوحي بأنهما قد جاءا من وسط عال جدا وغريب. فعلى الرغم من أن الاسم: رجب يثبت مصريتهما، إلا أن هناك أقوالا كثيرة عن أن الأم تنتمي إلى عائلة شامية، أو ربما أوربية بالغة الثراء. هما ليسا توأمين فإبراهيم أكبر من حسين بعام واحد. إلا أن حسين يبدو دائمًا أكثر وأشد وأوضح حضورًا في كل المواقف.

حاولت أن أتذكر أصغر التفاصيل عن السنوات التي أمضيناها معا في مدرسة العباسية الثانوية عندما قررت أن أزور مؤسسة رجب للاستيراد والتصدير لكي أبحث عندهم عن حل لمشاكلي المالية المتفاقمة.

تذكرت أن إبراهيم كان يجلس قريبا من الصفوف الخلفية إلى جوار شباك، وأن مكاني كان وراءه مباشرة، بينما يجلس حسين في قلب الصفوف الأمامية، مزهوا بعض الشيء، محاطا بعناية مركزية من زملائه والمدرسين معا. كما تذكرت أن الفصل كله كان يمكن تقسيمه إلى مستفيدين دائرين في فلك الأخوين رجب، أو متباعدين متفرجين عليهما، مراقبين لهما، بعيون ظاهرة، أو من طرف خفي. كما تذكرت أنني كنت معجبا بوقار إبراهيم وهدوئه. فعلى الرغم من حضور حسين الظاهر المتعدد الألوان، إلا أن هذا لم يمنع إبراهيم من أن يتمتع بمكانة كبير العائلة الوقور المتزن. كنا في نهاية الدراسة الثانوية. وكانت «التوجيهية» في ذلك الوقت هي الشهادة المحترمة، التي يتوقف الأغنياء بعدها عن التعليم لكي يديروا شئون المال أو الزراعة.

عندما دخلت إلى مكتب رجب للتصدير والاستيراد، الذي يقع في شقة فاخرة من شقق وسط القاهرة القديمة، أحسست أنني محاط بجو أمريكي بالغ النظافة والإتقان. لم تمض لحظات حتى كانت السكرتيرة اللبقة الجميلة قد عرفت عني كل شيء. أحسست أنها قد عرفت ـ أيضًا ـ كل ذكريات علاقتي القديمة بالأخوين. بل وكأنها عرفت ـ أيضًا ـ رأيي وتقييمي لكل منهما. أعلنت لي ـ بكل أسف ـ أن حسين بك كان يسعده طبعًا أن يراني، لولا أنه الآن في سفر قصير بالخارج.

أما إبراهيم بك، فإنها تعتقد أن باستطاعتها تدبير لقاء سريع معه، ربما الآن. وعادت لكي تزف لي خبر أنه ينتظرني في شقته العلوية الواقعة في نفس العمارة.

وأنا في طريقي إلى شقة إبراهيم بك، حاولت أن أحدد بالضبط ما الذي سوف أطلبه. كان الشيء المنطقي الوحيد هو أن أطلب إلحاقي بوظيفة بعد الظهر، ذات مرتب معقول ـ أو كبير ـ أعيد به توازن حياتي المالي المختل. كما حاولت أن أستجمع في ذهني قصصا أو طرائف عن ذكرياتنا المشتركة توحي بقدراتي في العلاقات العامة والاتصال بالناس. وكنت أعتقد أن إبراهيم بك ـ بالذات ـ سوف يكون مؤيدًا لطلبي هذا.

أدخلوني عليه في شرفته الواسعة التي تطل على لا مكان وأغرب ما شعرت به أن الضوء هنا ضوء خاص. وأنه من الصعب عليّ أن أعرف في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار نحن. كان إبراهيم عجوزًا بعيدًا في آخر الشرفة، يرتدي ملابس فضفاضة مريحة، وأمامه زجاجة ويسكي فاخرة، وفي المكان موسيقى كأنها جزء من فيلم سينمائي قديم.

فيض المشاعر، وكثرة الكلمات الغامضة المشحونة بالعواطف جعلتني أدرك سريعا أنه قد شرب كثيرًا أجلسني في مقعد قريب منه، وصب لي في ترحاب كئوسًا كثيرة متتالية، وهو يلتفت إليّ بنفس الوجه القديم. يحاول أن يستعيد ذكرياتنا معا، فأقدم له أنا ـ بدوري ـ تفاصيل حميمة، تدفعه

إلى التدفق في الحديث، وفي الشراب. عاصفة غريبة من المشاعر جعلته يعلن لي ـ أنا الصديق القديم ـ أنه لن يبقى إلى الأبد في بطن حسين. في كرشه. وأنه لن يحتمل استمرار هذا الحال.
بعد وقت لا أدري إن كان طويلا أو قصيرا، قال لي إن حسين حوت. وأنه يستعد لكي يبتلع كل شيء، وأنه لن يسمح بذلك أبدًا. لا بد أن يعرف كل منا حدوده، وإذا كان يريد الانفصال والتقسيم، فليكن، ولكن يجب أن يعرف أنه هو السبب، وليتحمل نتائج الفضيحة.
حاولت أن أجيبه بكل ما يمكنني من لباقة، مظهرًا براعتي في إصلاح ذات البين، ولم ينقذني من التورط في الحديث، سوى ظهور السكرتيرة اللبقة الجميلة، معلنة لنا أن إبراهيم بك مطلوب لموعد هام، وأن هناك سيارة معدة لكي تنقلني ـ أنا ـ إلى أي مكان أريد.

خطفوا اللعبـة

قررت إدارة مرور القاهرة إرسال الشاويش السيد زينهم بأوراق المخالفة رقم ٣٨٩ مرور حلوان من الإدارة العامة بميدان التحرير إلى محكمة مرور حلوان للفصل في القضية.
قال الضابط للسيد زينهم هذا الكلام عندما كانت الساعة تقارب الرابعة والنصف ظهرًا. المكتب الخالي الكبير الذي يجلس فيه الضابط يبدو وحيدًا جدًّا تطل نوافذه الواسعة على الميدان الكبير.
لم يكن هناك في الميدان ضوضاء، أو مرور أو حركة كثيرة. الشمس تسرع بالاختفاء وراء العمارات الكبيرة الواقعة على النيل. والسجادة المفروشة في الحجرة الواسعة لونها الكلي صعب التحديد، وخيوط نسيجها حائلة بلا لون. في أطراف الحجرة مكاتب خالية غامقة اللون، عليها دوسيهات قليلة مرصوصة في خانات خشبية. المكاتب لا تلمع، وأرجلها الخشبية متآكلة. أما الفراغ الذي في الحجرة فكان يبدو كبيرًا أكثر من اللازم.
ليس في مبنى الإدارة الآن سوى موظفين قلائل، متناثرين، كل منهم في حجرته، حجرة كبيرة خالية كهذه، يشعر كل واحد منهم بالبرودة وبالفراغ. تلمع بين الحين والآخر الزراير النحاسية اللامعة في سترة عسكري أو ضابط، وتسمع بين الحين والآخر في طرقات المبنى خبطات حذاء عسكري ثقيل.
لم يكن من طبيعة الشاويش سيد زينهم أن يرفض أو يحتج على مثل هذه المهمات المفاجئة. فعلى الرغم من أن الساعة قد جاوزت الرابعة وعلى الرغم من أنه كان قد فكر في العودة إلى البيت إلا أن إحساسا عامًا بالترحيب واللامبالاة كسا وجهه عندما قال الملازم.
- إنت بقى تاخذ الورق ده.. وتطلع على حلوان.
لو كان الشاويش قد قال للضابط أو تركه يشعر أن هناك غضاضة في الموقف، أو أنه يفكر في الرفض، أو أنه يريد أن يفعل شيئًا آخر، لنادى الضابط على عسكري آخر، فهذا الملازم طيب ويحب السيد زينهم ولكن الشاويش لم يقل شيئًا غير:
- أمرك يا أفندم..
قام الضابط واقفًا وأخذ يتأمل الشاويش سيد زينهم ليرى لماذا قبل هذه المهمة بهذه السهولة. كان يحدق في وجهه ولا يستطيع أن يفهم. ولكنه قال في لهجة ملولة وكأنه يكلم نفسه:
- أظن مش حاتلاقي حد هناك غير الحاجب، سلمه الورق وخلاص..
تحرك الشاويش سيد زينهم بعد أن أدى تحية عسكرية. ووقف الضابط وحيدًا ينظر من النافذة الواسعة على الميدان الكبير. بعد أن خرج السيد زينهم من الحجرة رن في الفراغ الصامت صوت جرس التليفون. استرد الملازم وحيد عيونه من على الميدان، وعلت وجهه حمرة مفاجئة. أحس أنه صغير في الحجرة. وأن التليفون يدعوه إلى عالم خارجي واسع. سكتت نفسه، ورفع السماعة. كان متأكدًا أنه سيسمع صوتها:
- إلهام.
- .. أهلا.
- فيه حد معاك.
نظر حوله إلى الحجرة الفارغة واستدار بسلك التليفون جلس على المقعد، حدق في صورة كبيرة مثبتة على الحائط أمامه.. وقال:
- إنتي معايا طول الوقت.

علت ضحكاتها في الطرف الآخر وأحس هو بأنه يجب ألا يفشل. كل الذين يقلدهم يستطيعون قول كلمات الحب دون أن ترتجف وجوههم. وجهه يجب أن يظل جامدًا، كهذه الوجوه في الصور، ككل الذين يقلدهم. قالت:
ـ الليلة.. لازم.. كلهم.. حيكونوا موجودين.. تعرف إنت لو قلت أي حاجة حأكون زعلانة منك.
ـ ستي.. أنا أقدر.
سمعها هذه «ستي.. أنا أقدر». كل ما أستطيع أن أقوله، وأشعر أنه ملائم قاله قبلي آخرون. أنا فقط أقلدهم. وساد خط التليفون صمت. كانت أنفاسها الحارة المفتعلة تحاول أن تصل إليه لتحدث فيه شعورًا معينًا. وكان هو مستسلمًا خائرًا في الغرفة الكبيرة الواسعة.
انطلق الشاويش السيد زينهم من البوابة الكبيرة على الموتوسيكل الأحمر السريع. كانت ملابسه البيضاء والسوداء تتناسق فوق الموتوسيكل الأحمر في رشاقة وجمال وهو يعبر الميدان الكبير، الذي لا يتحرك فيه سوى تكسيات بطيئة زاحفة. دارت يده على اليد الكاوتش فعلا صوت الآلة مرددًا قوة الشاويش السيد زينهم وحماسه للحياة. في بطنه ثقل رغيف الفول وفي ركبه وسيقانه فحولة الرابعة والثلاثين. الحذاء الميرى الثقيل متمكن من الفرامل في الرجل، والصدر مفتوح لكل هواء الكورنيش. وليت نعيمة تدرى بكل هذا الجمال. إنها تعرف لذة واحدة فقط. وأنت تعرف لذة جسدها الأبيض.. وكل لذة أخرى. هذه السرعة لذة. ومن يدرى قد تكون نعيمة تفكر فيّ أنا الآن بالذات. قد تكون في الشرفة الآن تنتظر، جسدها نظيف، وتفكر في راحتي.. ألا يمكن!
أمسك فخري السيد زينهم بذيل فستان أمه نعيمة وقال لها:
ـ أنا باقولك جيبي تعريفة.
كان يقفز في الغرفة العارية، دافعا أمه إلى المائدة المستديرة التي تشغل منتصف الفراغ. وقد علا بنطلونه القصير ووجهه تراب الشارع.
ـ طيب وديني لكون قايلة لأبوك.. أما أشوف أنا الشغل بتاعك ده.
وعلا صراخ فخري، وتعالت ضربات حذائه. ولكن غضبه ما لبث أن ذاب، وحلت على البيت لحظة انتظار فارغ. ولمحت نعيمة جزءًا من السرير العالي المفروش بالبياض، وتخيلت أشياء سريعة عابرة جعلتها بسرعة تشعر بوجود الولد في الصالة وصمته المريب. ورأت نفسها تغرف للسيد طبق البامية، وفرحت بالدسم الأحمر على أطراف الطبق، وقطعتي اللحم الغامقتين البارزتين في النصف. وانطلق في صدرها صوت أغنية لعوب.
لم يكن الملازم وحيد قد فرغ من الحديث في التليفون بعد، حتى فتح الباب وجه ضابط آخر. شاب، شعر شاربه أصفر. أحس وحيد أنه مهدد، ومهزوم، وأنه مهاجم، ولم يدر ماذا عليه أن يفعل. انتصب واقفًا، وداعبت يده الممدودة آلة التليفون وانطلق من داخله صوت غريب ومتحشرج:
ـ لا يا فندم، لا، التعليمات بلغناها.
وابتسم في انتصار أبله إلى الشاب الأنيق الواقف أمامه، مدحت أطول أفراد الشلة لسانًا.. ماذا يهم؟ هل تظن أنه قد فهم أنني أكلم فتاة. لا أظن ماذا يهم على أية حال.
ـ أنا راح اتصل بيكم يا أفندم وأبلغكم التعليمات.
أعاد السماعة إلى وضعها وبدت على وجهه علامات الذكاء. عاد يستجمع شخصيته المفككة ليواجه بها الموقف ا لمتأزم.. حياته كانت هكذا استجماع للشخصية المفككة أمام مواقف متأزمة. إنه يشعر أنه مظلوم. وأنه لا شخصية له.
ـ أهلاً مدحت.

كان الشاويش السيد زينهم قد وصل إلى مبنى مستشفى «هرمل» القديم، وكانت عيونه تشعر بأنه كان على الشاطئ الآخر من النيل يومًا ما، مبان، وأنها راحت.
كان هذا يولد في نفس الشاويش السيد زينهم شعورًا خفيفًا، ولكنه لم يكن يهتم.. كان دائمًا لا يهتم. إنه يعرف هذا الشعور الخفيف جيدًا.. ويعرف أيضًا كيف يطرده. إن طرد هذا الشعور الخفيف من شروط الرجولة.
كان صوت الموتوسيكل واهتزازات الآلة تحت جسم الشاويش السيد زينهم يبعثان في منظر الشارع شعورًا راقصًا جميلاً، والشاويش يتحرك ويهتز جسده المليء القوي فوق الموتوسيكل كأنه فهد رشيق. شارع الأسفلت ساكن يمتد تحت العجلات راضخًا سعيدًا. كان هناك جو من الفرح والسعادة في الشارع. وانطلقت حمامة كبيرة كانت راقدة داخل شجرة وكأنها فزعت من صوت الموتوسيكل. ولكنها لم تكن حزينة عندما رأت هذا المنظر البهيج. والشاويش أيضًا كان سعيدًا لأنه رأى حمامة تطير. ليس في الحي الذي يسكنه حمام يطير. استدار الموتوسيكل في يده ليتفادى طفلاً صغيرًا يجرى وتعجب لماذا يلح عليه خاطر أمه في هذه الأيام كثيرًا.
كان فخري قد انتصر وأخذ من أمه التعريفة ليتركها وحيدة في البيت فيأتيها من الشارع صوته وهو يلعب ويصرخ في الأولاد. لم يكن هناك أمامها سوى أن ترقد في السرير وتنتظر مجيء أبو فخرى. وقد فعلت.
الضابط وحيد كان قد تخلص من مدحت بصعوبة وأحس في قرارة نفسه أنه أهين وأن مدحت لن يسكت أبدًا ولكنه سيشيع في الإدارة كلها أنه كان يكلم فتاة. إنه لا يسكت؟.. غدًا ستعرف الدنيا كلها. وجلس الضابط وحيد وكان ينتظر في خوف.
وانطلق الشاويش زينهم إلى الكورنيش الكبير عبر الكوبري العالي وهبط بالموتوسيكل على الانحدار في رشاقة وخفة وامتد أمامه الشارع الأسود الطويل. وكان النيل إلى جوراه أبيض واسعًا ينعكس على سطحه بريق الضوء.. وعلى الشاطئ الآخر يتراكم النخيل في وسط عتمة باردة.
اهتزت عجلات الموتوسيكل وانبطح الشاويش زينهم طويلاً ممددًا في أرض الشارع منكفئًا على وجهه. أنفه في وسط الأسفلت وحوله دائرة صغيرة من الدماء الحارة.
انتفض الضابط وحيد من الفزع عندما دق جرس التليفون في الحجرة. وشيء ما شك نعيمة في قلبها عندما سمعت صرخات فخري في الحارة. كان الأطفال قد خطفوا منه اللعبة.
الجميع حزانى في جنازة الشاويش السيد زينهم الصغيرة. بعض صغار الضباط يقفون على بعد أمتار قليلة من القبر. ويقف أمامهم فخرى يدور برأسه في كل اتجاه ويده تشد البنطلون القصير الذي عفره تراب المقابر.
إلى جوار فتحة القبر مباشرة تكورت نعيمة ملفوفة في ردائها الأسود الذي يضغط على لحمها الأبيض ويبرز مفاتنها.
صدور الضباط ملأها الضيق. وأنهك كبرياءهم الأسى والعرق. اللحاد بطيء ومتكاسل، وتحوم فوق المكان ذكرى صرخات الزوجة الملتاعة.
أحس الجميع بسخونة الشمس. وأحسوا بالعري الأجرد الذي يحيطهم وراقبوا الظل الذي تلقيه شواهد القبور على رمل الجبانة.
وصرخت نعيمة الأرملة صرخة نهائية عندما بدأ اللحاد يهيل على الجثة التراب.
أسقط في أيديهم جميعًا. وطلعت من صدورهم زفرة عالية.

المسافر الأبدي

مات صديقي سالم دون أن يسافر. كان قد أمضى نصف حياته يتطلع في الخرائط ونشرات المدن.. ويجمع قصاصات عن المغامرين وأصحاب الرحلات الكبيرة والمثيرة.

في أواخر المدرسة الثانوية كان صاحب أحسن كراسات للجغرافيا، وكان دقيقًا جدًّا في حساب اختلافات الوقت بين البلاد. وفي معرفة التغيرات المرتبطة بخطوط العرض والطول.

اختلفت بنا طرق الحياة، ولكنه أمضى فترة شباب غريبة، سيطر فيها على خياله حلم السفر، وأصبح دائم الزيارة للسفارات الأجنبية، والتردد على المراكز الثقافية. وكان يحمل تحت إبطه دائمًا دوسيها أسود، يزداد ضخامة مع الأيام، يحوى الخرائط والنشرات السياحية التي كان يعتز بها جدًّا ويحافظ على أطرافها من البلى والتثني بقطع من الورق اللاصق.

غاب عني، وغبنا جميعًا في عملية طويلة بلا نهاية، تمثلت في اللهاث وراء لقمة العيش، والأتوبيسات، واجترار الأحلام في أركان المقاهي.

أخذ حلمه بالسفر أشكالاً مرضية، وفكر في الهجرة، واستخرج جواز السفر، وأصبح يعرضه على الأصدقاء، ويؤكد أنه سيسافر بعد أسبوع أو أيام.. ولم يسافر.. واختفى. وعاد يظهر في الشوارع مهزومًا، وصمت شهورًا وعرف بعد ذلك أنه تزوج وأنه يعيش في حي شعبي بعيد.. يذهب إليه كل ليلة سيرًا على الأقدام.

كنت ألتقي به أحيانًا في مقهى أو بار، ونجلس في صمت. وعندما كان يطرق برأسه وهو يطلي حذاءه كانت تعتلي عينيه وجبهته نفس تلك البوارق التي كانت تضنيه وهو بعد شاب صغير. ويتجسد في وجهه ذلك الحنين اللاسع للسفر، والذي لم ينطفئ قط.

عندما أخبرتني ابنته الشابة بموته على فراشه. قالت لي إنه لم يمرض سوى أيام قليلة، وأنه لم يكن يقرأ وهو راقد على فراش المرض سوى أخبار السفن والمطارات. وقالت إنها وجدت تحت وسادته جواز السفر به صورته القديمة. وهي تخرج الجواز من حقيبة المدرسة لمحت على وجهها نفس ذلك الشوق والحنين.. وصاحبتها في مشوار طويل على شاطئ النيل.

ياسمين من نابلس
مهداة من فدوى طوقان

لا أذكر بالضبط كم كتابًا قرأت في حياتي، لكن كتاب الشاعرة «فدوى طوقان» رحلة جبلية، رحلة صعبة، أدار رأسي، وأدارني. نعم أدارني لكي أضع وجهي في وجهك. هو الذي أدارني لكي أنظر للمرة الأخيرة في عيونك العسلية العميقة. تلك العيون التي منحتني نظرة لم أرها قبل ذلك ولا بعد ذلك ـ أبدًا ـ في حياتي.

(هل يعرف أحد كيف تمر بنا الحياة نحن النساء العربيات. حياتنا بطيئة الإيقاع طويلة، مليئة بآلاف آلاف الأشياء الصغيرة المتلاحقة تبعدنا عن الروح، عن الحب، عن الكتب، عن كل ما هو ساكن تحت الجلد.

سل أي أم، أو زوجة، أو عشيقة، أو مطلقة، أو أرملة مثلي، كم من الوقت تملك لنفسها؟ وقت تقضيه خالية حرة، صافية غير مكدرة، أو مقهورة، أو مشلولة عاجزة عن التصرف. لحظات قليلة جدًّا في كل الحياة لحظاتي القليلة ـ هذه ـ أمضيت أغلبها معك. أقصد في صحبة ذكراك وطيف خيالك.

لا تظن أنني بعد كل هذا العمر أكتب لك خطاب غرام، أنت لم تعد موجودًا، ولا أنا عدت صالحة للحب. خطابي صوت ناي بعيد، وقد أصبحت أنا حصانًا وحيدًا عجوزًا يرقب وادي الحياة الأخضر في حزن بارد.

لا تحزن من أجلي، إن كنت ما زلت قادرًا على الحزن والمشاعر، فأنا قد شبعت من كل ما في الحياة من متع ومتاعب، من كذب ولذة وعذاب.

حالي الآن قريب من حالك، لم أعد أعرف سوى ذلك الحزن البارد. أستيقظ به، وأشرب قهوتي معه، وأسحبه ورائي في خطواتي الضيقة القليلة أخطوها في بيتي الكبير الخالي. أعيد تنظيم أشيائي التي لم يمسسها أحد.

مات الزوج ورحل الأولاد الثلاثة إلى أطراف الأرض، خلت لي ولك صحراء بيضاء تقع خارج الزمان والمكان.

هل ما زلت تذكر عندما اتهمني أخي الكبير فيك. لا أعرف تهمتي بالضبط. لكنه قال إنني فاجرة. ويجب أن أمنع من الذهاب إلى المدرسة. وأن أبقى في البيت. كنت وقتها غارقة في حبك. كل شيء غير حبك كان مجرد أوهام قاسية. حبك كان يجعل الحياة بارعة الجمال. لدرجة أنني لم أنتبه إلى أن الاتهام والحكم سوف يحرمني من الماء والهواء، وأنني أدخل إلى بحار مظلمة، أتعلق فيها بالأشياء فلا تنقذني. يداي لا تصل أبدًا إلى ملامستك، عذاب العذارى، محيط من الألم والذنب والسعادة، لم أنتبه إلى أن الإعدام قد نفذ في كل غزلان الأرض، وأنني قد خرجت وحدي منفية بعيدًا عنك إلى الأبد.

ماذا حدث لكي يفعلوا بنا كل هذا؟ عندما رأيتك واقفًا أمامي تسد بقامتك طريقي وتفتحه، انحلت يداي المعقودتان على صدري، وانفرطت الكتب والكراريس على الأرض، لم يجمعها لي أحد، جمعتها أنت معي، ووهبتني عيناك العسليتان حينئذ نظرتنا الخالدة، ووضعت بسرعة في رأسي المرتجف زهرة الياسمين، هل فعلاً لامست يدك خدي وجبهتي؟ أظنها بعض أوهام وأساطير.

صليت، وصادقت القطة، وأثاث البيت، وبعد أن حاولت الانتحار، رجعت أخطو على الأرض باردة، امتلأت حياتي وأحلامي بطرقات لا نهائية من الرخام، أذكر أن نوافذ البيت وفتحات الضوء

لم تعد تدعوني للخروج، نقوش سجاد الصالة أدفن فيها عيوني لكنني ـ حتمًا ـ أراك. وبيت أبي العربي الكبير في نابلس تحرقه نار بيضاء باردة من الصمت والذبول. حلمت يومئذ أن طفلي ـ منك ـ قد مات وأنني أغسل صحن الدار بالدموع.
لم ينقذني سوى الاحتلال، فقد اقتلعوا شجرتي وزرعوني في مصر، وبقيت أنت في فلسطين.
حاولت روحي أن تبقى لكي تراك، ولو مرة أخرى وأخيرة، لكنني سجنتها، لم أمت وانخرطت في طابور اللاجئين الأشقياء.
من لي بتلك الأيام الأولى الآن! ما إن خرجت حتى عدت لي. اقتسمت معك كل شيء، كنت معي كما لم يكن من الممكن أن تكون، نظرت خلفي ولم أتحول إلى امرأة من الملح.
لم أشعر في حلقي حتى بالمرارة. كانت ذكراك وطني، وحريتي. ووجودي المطلق. وهذا مرة أخرى ليس خطاب غرام.
كان قلبي أرضًا طيبة لم تمت فيها بذور وصارت لي معك تلك اللحظات الخاصة التي حدثتك عنها، لحظات قليلة نادرة، لكن كلها صفاء.
زوجي الطيب المرحوم كان يقترب مني، يلمس خدي وجبهتي ويقول:
ـ ما أصفى وجهك، عندما تسرحين.
تحملت روحي بغباء حبك، وحبهم: زوجي، وأولادي الثلاثة، تحملت بقدرة الخالق والزمان والمكان، كان في قلبي لك محراب، ونادرًا ما شعرت مع زوجي بالخيانة، كنت أقول لنفسي: جنب النخلة دائمًا تنبت فسائل خضراء نضرة. لكن ماذا عن الجذور!
نسيج حياتي المضفور كان يحمل دائمًا خيطًا منك. أولادي الثلاثة، أستغفر الله، في كل منهم ملمح منك. وكثيرًا ما قال لي زوجي وهو يدعوني إليه:
ـ لو أننا التقينا في فلسطين.
اليوم ـ يا حبيبي ـ وأنا أعاني قراءة كتاب «رحلة جبلية ـ رحلة صعبة»، أعاني معانيه الحارقة، وأعاني من ضعف بصري، لمحت اسمك في صفحة الوفيات المطوية في الرف التحتي من منضدة الصالة.
اسمك هنا، في مصر، إلى جواري، في «الأهرام»، وفي صفحة الوفيات!
الحمد لله، أنهم لم ينشروا صورتك، فقط كتبوا فوق الاسم: «يا أيتها النفس المطمئنة».
هل شعر أحد. بتلك الجذبة القوية العنيفة التي أحسستها في شعري الأبيض الناحل.

البشكير الملون

اندفع سيد في طريق الشرق، حيث الصحراء وبعدها المقابر. طريق لم يقطعه أبدًا من قبل.
لا يرى سوى الغبار في عينيه، وأشباح الرجال وخطوط الجدران، وأسقف البيوت، تسلم نفسها لفراغ مصنوع من حرارة الشمس، والأطلال وأكوام الخرائب.
يقطع الأمتار الأخيرة قبل أن يخرج من المدينة، حاملاً طفله «وحيد» الذي مات منذ ساعات، ملفوفًا في بشكير ملون.
أحمر العينين، منكوش الشعر، متهدل العقل والملامح، اقترض أولاً: ثلاثة جنيهات، لزيارة الطبيب الكبير ثم ثلاثة للدواء، وبحث عن ثلاثة أخرى، يوم أن عاد من عمله، ليرى وحيد في حجر أمه أزرق، متهدل الرأس، مغلق العينين.
عندما لم يجد، ذهب إلى «المستوصف» القريب، ودفع آخر جنيه ونصف. بعد الزيارة، تركه مع أمه في الغرفة، وذهب بعيدًا يبحث عن خمسة جنيهات للدواء، كان الوقت متأخرًا.
عاد بدونها، وأمضى الليلة يلهث مع «وحيد» ويتحاشى عيون أمه التي تحولت إلى مخالب.
راقب عيونه المغلقة، وعيونها، يده المتدلية، ويدها القابضة على الهواء، المصباح ظل مضاء حتى الفجر، والشبشب ذو الكعب العالي مقلوب في ركن الغرفة، قدماه متورمتان، محملتان بتراب وطين الطريق، فوق جلد جاف ميت، أظافر قدميه المعقوفة كان آخر ما رأى. أغلق التعب عينيه لحظات، فنام. قام مع أول لسعة لشعاع الشمس، خرج دون أن ينطق، رجع في العاشرة، كان وحيد قد مات وأمه تقفز كدجاجة ذبيح، تزحف على بطنها فوق أرض الغرفة حولها أشباح نساء كثيرات.
خبط رأسه في الطوب الأحمر، في حافة الباب ثلاث مرات، أسلمته امرأة سمينة ابنه «وحيد» ملفوفًا في بشكير ملون.
أمسكت أم وحيد ببنطلونه، وهي تتمرغ على حصير الغرفة.. ولكنه اندفع يقطع الشارع في اتجاه الشرق، حيث الصحراء وبعدها المقابر طريق لم يقطعه أبدًا من قبل.
(أول شيء رطب لامسه كان يد الغفير، التي امتدت لكي تصافحه. خرج له من حوش مقبرة ظليل، قال: البقية في حياتك، وقرأ آيات من القرآن، ثم قال: «ثلاثة جنيهات فقط وننتهى بسرعة، ندفنه هنا، مع الأكابر، وعظماء الرجال». سكت سيد، ولم يرد).
(قال الغفير: اثنين جنيه، وهذا آخر كلام، كل الناس عيونها مفتوحة، حتى الأموات!).
(ظل سيد صامتًا يحدق فيه، وأقسم أنه لا يملك نقودًا).
(استدار الغفير غاضبًا، دمدم بكلمات لعلها سباب).
(اندفع سيد قائلاً: تعال.. تعال! خذ خذ).
(رجع الغفير، ومد يده، وضع سيد البشكير الملون فوق ذراعي الغفير، كأنه سيبحث في جيبه عن نقود، لكنه انطلق جاريا قافزًا تحت الشمس، فوق الأطلال وأكوام الخرائب، والزبالة، تاركًا الغفير مشدوهًا، يحمل فوق ذراعيه الممدودتين بشكيره الملون).

حكاية كل يوم

لم تدر كيف نامت ليلتها، ولا تدرى كيف استيقظت. كوب الشاي الذي صنعته لنفسها كان أول شيء ساخن وهي تشعر به في أطرافها التي كانت في حالة خدر يشبه الموت.

جالسة إلى منضدة المطبخ مرتدية قميص نومها القديم، لم تغسل وجهها بعد، تحدق في الهواء الكثيف الذي يملأ مطبخها. أكواب شاي وقهوة. وأطباق بها بقايا طعام من آثار الليلة الماضية. وأوراق ممزقة وقشر برتقال ملقى حول صفيحة الزبالة.

هي ليست خائفة ولكنها مضطربة. عمارة سقطت فوقها. تسير بأقدام عارية فوق حجارة وأنقاض.

قال لها: «لا أستطيع أن أتنفس. إنني معك أختنق.. أموت» لم تدر ساعتها ماذا تقول. أذهلها منظره الشاحب المسكين، وجهه الذي تعرفه جيدًا، كأنها تراه لأول مرة. قالت: «أنا أيضًا أختنق أموت.. معك».

طفولتها لم ولن تنتهى أبدًا. عنادها ضوء دوار، يضيء في رأسها ثم ينطفئ.

تراكمت لحظات ثقيلة منذ غروب الأمس. كان يستعد للخروج ويريدها أن تخرج معه. ارتدى ملابسه وظل جالسًا أمام التليفزيون يراقب البرامج التعليمية. ظلت هي في غرفتها تراقب وجهها في المرآة. وجدته وجها ضائعًا. وكأن ليس به ملامح. يسألها: من هي؟ لماذا هذا الرجل الذي يختنق جالسًا في الصالة.

جاء صوته عاليا معدنيا: «ألن تنتهي أبدًا».

لم ترد..

وقف على باب الغرفة، رأى أنها لم ترتد ملابسها. رأى أنها لا تفعل أى شيء.

قال:

لم أعد أطيقك. لم أعد أطيق سخافتك، وجنونك..

كل يوم تزداد كلماته غلظة وغرابة. يكرر الجنون والسخافة والغباء بسهولة. لم تعد تستطيع أن تنسى الكلمات. تتراكم الكلمات فوق بعضها في مكان ما بين القلب والأمعاء. جنين ميت.

كيف تخرج معه تزور نفس الأصدقاء، أصدقائهم زوجاتهم لسن صديقات لها. تكره المساء والسهرة، تكره الكلمات التي يكررها كل مرة وهم في طريقهم إلى الزيارة. يتقرب إليها في افتعال، يحاول أن يضع على وجهه ابتسامة لزجة، يلامس شعرها ووجهها في نفاق سخيف، جبان. صمته المحبط المهين وهما عائدان إلى البيت، هل يصدق حقًا أنها غبية بلهاء؟!

خلال السهرات تشغل نفسها دائمًا بمراقبة الافتعال والزيف الذي يصاحب سلوكه وسلوكهم. تسأل نفسها دائمًا كيف يتصرف هؤلاء الرجال المتحذلقون الذين يتكلمون بصوت عال في السياسة والفن، عندما تغلق عليهم مع زوجاتهم الأبواب، عندما يرتدون البيجامة أو الجلباب، ويستلقون أمام التليفزيون في بلادة وعفن. كيف يسلكون في غرف النوم، وفي مطابخهم، أو عندما يستجدون الجنس كخراف هائجة منتفخة. أو ينعرون في لحظات ضعفهم فيكشفون عن غرائز مشبوهة وأرواح ميتة. وتشعر في كل ليلة أنها تنسج دائمًا نسيجًا مكررًا من نفس الخيوط. نسيجًا أوهى من نسيج العنكبوت.

حطم ذلك الأحمق كل شيء بالكلمات. ركام من الألفاظ الميتة. ركام، ركام. لو أنه ترك لها طاقة أمل واحدة يريد أن يسوي بها الأرض. هو أيضًا صار منكفئًا على بطنه، بلا أمل أو طموح. ماذا

يريد منها الآن سوى طعامها المكرر، والبلولة التي يخلفها بين فخذيها. يطل برأسه التي تشبه رأس السلحفاة، من تحت حراشف صلبة ميتة، ثم ما يلبث أن يدخل رأسه فيتحول إلى جماد أغبر كريه..
سمعته يتحرك في الحمام. أدارت بصرها ناحية النافذة أسرعت في ارتشاف كوب الشاي، سمعت سعاله الصباحي، وشمت رائحة سيجارته الأولى التي يشربها في الحمام، أحست بغثيان ورغبة في القيء. مصيبة لو أنها حامل، حضوره في البيت ثقيل، يشل حركتها ويقيدها إلى الأرض.
لم يخرج بالأمس. خلع ملابسه. ألقى بها على السرير.. ظل يروح ويجيء في البيت، يسكت ربع ساعة باحثًا عن كلمات جديدة أسخف من سابقتها، لزمت هي غرفتها، بين المرأة والسرير ترتق فستانا قديما، وتسمع من الراديو أغاني حب حمقاء
سمعته يزحف وراءها داخلا إلى المطبخ. توقعت يده على كتفها. وتخشب جسدها كله، أخذ يكرر اعتذاره المكرر المنهوك.
ليس لنا مكان غير هذا، لا بد أن نتعلم كيف نعيش. ماذا حدث؟ لماذا لا تردين؟!
رفعت رأسها إليه، رأت وجهه هو الآخر ضائعا بلا ملامح، استند على المنضدة مقربا وجهه إليها، عرفت أنها سوف تخطو خطوات جديدة على أرض اللامبالاة.

ولا رجــوع

قلت في قلبي: أنت لا تعرفين شيئًا! هل تعرفين أن اليوم عيد ميلادي؟
أنا أنتظر الترام، وأنتظر فتاتي «إنصاف» على محطة «كامب شيزار الصغرى»، «البحر ورائي» وسماء خريف الإسكندرية في الضحى غامضة مليئة بأشكال من السحب. ليس حولي هنا على المحطة زحام، مقعد حجري شاغر، ومقعد آخر تشغله امرأة كبيرة تضع بين ساقيها كيسًا من البلاستيك الأسود تطل منه خضراوات ذابلة، وذيل سمكة كبيرة مجمدة.
المرأة ترتدى ملابس سوداء ونظارة طبية سميكة وعلى وجهها بؤس داكن عميق.
صرخ قلبي صرخة عاتية عندما امتلأ هواء المحطة وقضبان الترام الممتدة بتلك الطيور السوداء الصغيرة الزاعقة البشعة.
قلت في نفسي:
إنصاف.. لن تأتي، إنها تتركني لكي أقع في بئر بلا قرار.
وما لبثت تلك الطيور أن انصرفت عني منذرة بعودة مؤكدة.
داعب قلقي صوت الترام المتأرجح القادم من بعيد. وتمنيت في قلبي أن أرى قوام «إنصاف» الشهي يهبط من العربة المخصصة للسيدات. وتمد يدها لي مصافحة.
قال لي عقلي: لو أضاعت فوق درج الترام، آخذها في صدري بعيدًا، أحملها إلى بلدنا البعيد خلف بيتنا عند الجميزة الكبيرة.
كان من الضروري أن أنتظر الترام التالي، فمن هذا الترام لم ينزل أحد سوى مجموعة من الأطفال وعجوز أجنبي يتوكأ على عصاه. وغادرتني حتى المرأة الكبيرة السوداء تحمل معها سمكتها الميتة.
في الترام التالي كان قدري ينتظرني، وقد جاء سريعا. نزلت حبيبتي «إنصاف» تحمل على صدرها كتبها المدرسية. كان في وجهها شحوب وقلق. خلفها نزلت صديقتها «منيرة» وقفت واحدة منهما على يميني، والأخرى على يساري، سمعت صوت «إنصاف» خافتا يقول:
ـ تأخرت. آسفة، أنا ومنيرة سنسمع درس الظهر في الجامع في ڤكتوريا. يمكنك أن تأتي لو أردت.
لم أعرف كيف أرد. حضور منيرة كان وزنه ثقيلاً مرهقا. سقطت في حلقي ذكرى عيد ميلادي. وحلمي بيدها. وهواء البحر البعيد.
وقلت من حلقي الجاف.
ـ إن شاء الله. نلتقي في نفس الموعد هنا غدا.

عيناها والجبل

كانت في طريقها إلى البيت قبل الغروب. الغرفة التي تسكن فيها تقع في نهاية شارع يرتفع مع أطراف المدينة وينتهي إلى الصحراء بعد أن نزلت من الأتوبيس المزدحم أخذت تخترق الشوارع المليئة بالحياة، والأزقة التي يملؤها صراخ الأطفال قبل أن يحبسهم الليل.
تدق الأرض بحذائها الرخيص المترب ذي الكعب الألومنيوم. في رأسها إرهاق يوم طويل قضته في المستشفى بين المرضى والزوار. عيناها تسقطان في لا مبالاة على الدكاكين القديمة.
البضائع البسيطة المعلقة في كل مدخل. تراقب البيع والنسوة القابعات على أبواب المنازل تسرع خطواتها وكأنها ليست من هؤلاء الناس. هي لا تريد أن تكون منهم، خلعت ملابسها في المستشفى وقفت أمام المرآة كانت ملابس الخروج «مكرمشة» من وضعها المهمل في الدولاب الصغير، مرت بيدها على «البلوزة». شدت أطراف «الجونلة» التقت عيناها بعينيها المنعكستين في المرآة.
رأت في العينين الزقاق والغرفة الصغيرة والسطوح. وألوان عشرات البلوزات والفساتين التي تحبها. حاولت أن تضع بعض التواليت. ولكنها في غضب قررت أن تترك كل شيء لتفعله في المنزل بعد أن تعود، الليلة سوف تخرج في المساء. لا بد أن تخرج الليلة في المساء.
اللحظات الطويلة التي تأخذها رحلتها في الذهاب إلى المستشفى في الصباح، والعودة منها في المساء، كانت هي أصعب اللحظات في حياتها. فهي في تلك اللحظات تكون مستغرقة في أفكارها التي لا تتعدى طموحا حارقا يدفع الدم إلى رأسها الصغير، تدور عيناها تراقب الملابس، والعربات وفتارين المحلات. تتوقف أمام صور ثابتة كأنها الفانوس السحري. تظل تصاحبها كأنها مربوطة أمامها بحبال غير مرئية.
قبل أن تدلف إلى الزقاق الأخير الذي يقودها إلى البيت وينتهي باتساع الصحراء، كانت تقول لنفسها سوف تعود اليوم إلى رجل الأمس. سوف تضحك، وتنفخ في وجهه دخان السيجارة الذي لا تتقن ابتلاعه.. تطلب منه أن يضع في حقيبتها جنيها أكثر.. أو اثنين. إنه يلقي بالنقود هنا وهناك. هو لن يرفض فهو ظريف. قد أوصلها أمس بالعربة. طلب منها أن تراه كثيرًا. من أجل هذا سوف تلبس الفستان الأزرق.
عندما انحرفت لتدخل باب البيت خرج البقال الشرس الذي يراقبها بعينين جائعتين، رفع الحاجز الخشبي ووقف قريبًا منها:
- إنتي فين.. ضربنا لك تليفون في المستشفى قالوا خرجت.. أبوكي تعبان بيموت.. كان مالي السطح زعيق ومش طايق حد.. شوفيه ماله.
على السلم الضيق المظلم الذي قطعته كأنها قطة خائفة تساقطت الصور وغرقت في ظلام بير السلم أحست - وتنفسها يعلو - بشيء غريب يملأ صدرها. تذكرت المرضى الذين قضت يومها بينهم وعادت إلى ذهنها صور وجوههم المتألمة.
عادت إلى ذهنها بوضوح صورة عينيها هي اللتين تحدق فيهما ولا تراهما. قبل أن تفتح باب الغرفة الخشبي رأت جسدها عجوزًا ممددًا في سرير وحيد في صحراء.
أبوها قابع في السرير الكبير. والحجرة كلها منكوشة، كان يبدو غاضبًا منكوش شعر الرأس، على وجهه تعبير قاس ومتألم. اقتربت منه في هدوء الممرضة المحترفة.
لكنه كان ينفر من يديها اللتين امتدتا تحاولان أن تريحه. أخذ يشير لها إلى مواضع كثيرة في جسده، ويقول لها.. هنا. هنا. ويتلوى من الألم.

عجوز مريض بالسكر، والضغط، هي تحضر له الأدوية لكنه بين آن وآخر كان يفاجئها بهذه النوبات العصبية التي لا تستطيع أن تواجهها إلا بأن تأخذه إلى طبيب من أطباء المستشفى في عيادته الخاصة، حيث يكشف عليه ويقول له كلمات ويكتب له دواء جديدًا، تعرف هي ويعرف الطبيب أنه ليس أكثر من مقو عام.
لمحت في المرآة عينيها. ولمحت من خلف طرف الستارة فستانها الأزرق. امتد بصرها من النافذة إلى الصحراء. قامت تلف جسد أبيها بالبالطو الجبردين القديم. ولمحت في عينيه سعادة شقية كأنه خارج إلى نزهة. سندت جسده النحيل وخرجت إلى السلم، عبر الزقاق والحارة رأت عيون الناس تحدق فيهما. أحست أنهم يعرفون كل شيء. يقتربون منها ويحتكون بها في زحامهم الذي لا يهدأ. تقدم أحدهم ليساعدها في العثور على تاكسي للرجل العجوز المريض.
ظل صامتا طوال الطريق ينظر من زجاج العربة، ويبتعد عنها في الطرف الآخر. جلسا معا ينتظران الطبيب. وبعد أن استقبلهم الطبيب بتلك الابتسامة المجاملة للزوار الذين لا يدفعون، قام وكشف على الرجل وربت عليه، وقال إنه «زي البمب» ولا يحتاج إلا إلى هذا الدواء، وجلس يكتب الروشتة.
انفجر الرجل العجوز مشيرًا إلى ابنته..
- هي دي السبب.. هي السبب يا دكتور.. رمياني زي الكلب، ودايرة على حل شعرها.. كل يوم ترجع وش الصبح هي السبب حتموتني ناقص عمر.
وقف الطبيب حائرًا وصوت الرجل يعلو. وهي تحاول أن تسحبه خارج الغرفة وجسدها ينتفض من الخجل والغضب والانفعال.
وعندما وقفا أمام العمارة التي فيها العيادة ينتظران تاكسي آخر، كانت المدينة قد اشتعلت بالأنوار والألوان.

صباح الجمعة

عندما دخل فكري على والدته يجرى مرتعبًا، تركت كل شيء في يدها يسقط على الأرض واحتوته بين ذراعيها. قفز إلى أعلى يريد أن يخفى رأسه في صدرها، فابتعدت به عن البوتاجاز المشتعل.
لم لا يتركها زوجها دقيقة واحدة بلا إزعاج. ألا يستطيع وهو الرجل الكبير أن يبقى الولد معه دقيقة واحدة. أعادت وضع الولد على الأرض في عصبية، وتمنت لو خرجت من باب هذه الشقة بسرعة ولم تعد.
كان المطبخ من حولهما مزدحمًا، وقميص النوم الذي لم تخلعه حتى الآن يضايقها. كانت تفكر في شعرها الذي يجب أن تغسله الليلة مهما كانت الظروف. تعلق الولد في ساقها وألصق وجهه الساخن فيها. ولم يكن لديها أي «خلق» له.
ومن المؤكد أن زوجها الآن يحرك رجليه، يمط رقبته، ويقرأ الجورنال، حدقت في حبات الأرز البيضاء، واستمعت إلى تنفس الولد العالي، إنه يريد أن ينام بعد أن حرقه البكاء.
كان مستسلمًا غريبًا وهي تضعه في السرير. كأنها لا تعرفه، لامست وجهه. ومددت جسده تتحسسه وتغطيه، واتجهت إلى زوجها الذي كان يسعل في الصالون.
استندت إلى مقعد مجاور للذي يجلس عليه، وسألت الله أن يطرد عنها تلك المشاعر. أحس بها فسأل: نام؟
هزت رأسها. فعاد يقرأ الجورنال.
أصوات الشارع تملأ الشقة. وڤراندات العمارة المقابلة مفتوحة ولا تخلو من الحركة. ضوء منتصف النهار ثقيل في عينيها ورأسها. امتلأت أذناها بأصوات صباح يوم الجمعة المميزة تملأ الشارع والمنطقة. والميكروفونات تستعد لإذاعة الصلاة. تمنت أن يرفع لها وجهه، فقد كانت وحيدة وخرق أذنيها صياح الأولاد يلعبون الكورة في الشارع.
عادت إلى حبات الأرز البيضاء تحركها في الصينية. وتملأ أصابعها من دقيقها الأبيض. كيف لم يعد في حياتها شيء. شقتها الصغيرة الضيقة. وعملها الذي تخرج منه كل يوم في الثالثة وفي رأسها ـ فقط ـ صداع. وجه طفلها السمين وعيناه. والشوارع ـ كل يوم ـ مزدحمة وموحشة. ووجه زوجها يزداد بعدا، وتقل رغبتها في معرفته. إنها لا تتذكر متى كانت البداية وكيف.
ستضع الأرز على النار، وتغسل وجهها، وتغير هذا القميص الذي تكرهه كما تكره كل شيء. لو كانت في عملها الآن لكانت تشرب كوب الشاي الثاني وربما دخل صالح ـ زميلها ـ وأخذ يحاسب بائع الجرائد العجوز ويجعله يروى قصصا مسلية وطريفة.
زوجها يفتح الراديو. ويصفر بفمه لحنًا تكرهه. هل يمكن أن يفكر زوجها في الطلاق. والولد!
أسرعت إلى الحمام خلعت ملابسها وأحست في قرارة نفسها بنزق مخيف ومخجل، سوف تغسل شعرها في الليل وتستحم. كم تريد أن تنام الليلة نومًا هادئًا.
أمام المرآة تذكرت أن عليها اليوم أن تغسل قمصان زوجها ليس الآن ولكن فيما بعد. المهم أن تكون فترة الغداء هادئة فهي تشعر بدوار. لا يمكن أن يكون قد غير رأيه في مسألة السينما. الفيلم الأوروبي الذي قال عنه أمس. سوت شعرها بيديها في عصبية وغادرت غرفة النوم إلى الصالون.
عندما حان وقت الغداء كانت منهكة وعليها أن توقظ فكري وأن تحاول إطعامه. وجلست لتأكل.
فتح زوجها الراديو. كان يريد أن يسمع الأخبار. الطعام ساخن وهو يأكل بسرعة. لكن ليس له في

فمها مذاق. ألا يستطيع أن يأكل ببطء. يرتدى ملابسه، ويسمع الأخبار. ويأكل. وهي تلهث وراء ملابس فكري وأشيائه الصغيرة. سيبقى فكري مع «قرايب» زوجها حتى بعد السادسة، إنها لا تنسى شيئًا. عليها الآن أن توقظه وأن تغسل له وجهه، وأن تجعله طفلاً هادئًا حتى لا يغضب أبوه.
أغلقا باب الشقة. وعينا فكري الواسعتان لم تستيقظا بعد. تذكرت أنها لم تأخذ جاكتته فقد يكون الجو باردًا في الليل. ولكنها غيرت رأيها ولحقت بزوجها الذي أسرع في نزول السلم.
عندما أخذ زوجها فكري لكي يصعد به عند أقاربه، وقفت وحدها في الشارع. الدكاكين خالية ويسود المنطقة كلها سكون. ما وخز الإبر هذا الذي تشعر به؟ أحست أن روحها سقطت في قاع حقيبة فتعلقت بذراعه ولم يقل شيئًا. لو تذكرت ـ فقط ـ متى كانت البداية. وكيف؟! تغيرت الشوارع التي كانا يسيران خلالها بسرعة. أحست أنها تتعقب عملاقًا واسع الخطوات. ليست هذه هي الأرصفة المزدحمة التي تعرفها ـ كل يوم ـ أثناء عودتها. إنها خالية ساكنة في الساعة الثالثة من يوم جمعة. ما هذا الذي يرقد اليوم فوق الأرصفة.
حتى الزحام والصور علي باب السينما لم يجعلاها ترفع عينيها عن الأرض كأنها تراقب حركة التراب. لا يجب أن تكون اليوم ثقيلة. ثقيلة هكذا. عاد يحمل التذاكر وكان يبتسم. دخلا بسرعة فقد أطفئت الأنوار وهي تنتظره.
جلسا، وأطبق عليهما ظلام الصالة، كانت مرهقة وتشعر أن كل شيء من حولها قد صنع من الفخار. كل شيء: زوجها. والمدينة. وحتى قلبها نفسه، أحست بالعرق في جسدها كله. قالت لزوجها في صوت منخفض وبطريقة آلية إنها تنتظر أخا جديدًا لفكري وحدقت في وجهه في الظلام.
قال:
ـ أخت.
وأطبق على يدها وضمها نحوه.
عندما وضعت رأسها على كتفه.راحت في إغماءة قصيرة.

فوزية مهتمة بالنظافة

(خلعت فوزية فستانها الأسود مع أضواء الصباح التي بدأت تفرش صالة مكتب الصحة، وأشرفت على امرأتين تابعتين لها تغسلان المكان بالماء والصابون.

(رتبت هي حجرة الطبيب، وغيرت الهواء في حجرة شوقي البشكاتب واستقرت على عرشها أمام حجرة الكشف.

(ثلاث سنوات مرت عليها ـ منذ وفاة زوجها ـ وهي هنا في مكتب الصحة الكل في الكل، أما في الخارج فهي وابنتها اليتيمة وحيدتان كأنهما في بحر.

(شربت الشاي ثم القهوة، عندما جاء شوقي، وانطلقت ضحكاتها وأوامرها وصراخها في الوجوه الشاحبة العليلة التي افترشت الدكك والأرض النظيفة.

مع الحركة التي تتصاعد في المكتب كانت هي تتحسس البرايز وأرباع الجنيه التي تتقاطر في جيب ردائها الأبيض الواسع، وأبقت في ذهنها حسابًا نظريًّا هو ناتج قسمة النقود على رءوس المكتب الكبيرة.

كل يأخذ نصيبه، وهي تدير العمل بحرص واقتدار، كانت ملامح وجهها الأبيض العريض تتغير حسب الأحوال، حسب الوجوه التي تقابلها، لها تقدير ونظرة، ولكنها أبدًا لا تخضع لاعتبارات العطف أو مسامحة الفقير. قوانين مكتب الصحة وضعها الطبيب، وأشرف على صياغتها البشكاتب وتولت هي تطبيقها، وتنفيذها على الجميع.

في منتصف النهار أزاحت من فوق قلبها غصة وهي تدفع امرأة ذاهلة إلى حجرة شوقي لتستخرج لها شهادة وفاة زوجها، على كتف المرأة كان طفل ملتاع يصرخ، ثم يهدأ هدوءًا مريبًا.

انتقلت إلى غرفة التطعيم، وأشرفت على توزيع الحبوب، وعادت بسرعة إلى الشهادات المرضية، جهزت الحاجيات المتنوعة التي طلبها الطبيب من الجمعية التعاونية المجاورة وتداولت مع شوقي في شئون سرية متعلقة بمخزن الأدوية.

بلغت العصر وهي مجهدة، فتحت الزرار العلوى للرداء الأبيض وجلست جوار الشباك، في حجرة شوقي، تفحص أوراق النقد القديمة التي تجمعت في الجيب الكبير، لوت ذراعه وهي تدفع عن نفسها هزاره الثقيل.

أخذ الطبيب ما جهزته فوزية وانصرف بعربته وتلكأ شوقي يريد أن يصحبها في الطريق ولكنها صرفته، دخلت في فستانها الأسود وشيعتها المرأتان التابعتان بالدعاء لها.

في الحمام ذي الضوء القليل بكت ابنة فوزية اليتيمة وأمها تدعك لها جسدك الأبيض الصغير بالليفة، وتغسل رأسها بالماء الفاتر والصابون المعطر.

الغويشة الذهب

لم تكن هي قصة الحب التي ظللت أحلم بها طوال سنوات الشباب. ولكن لأنني تجاوزت الثلاثين وأصبح حدوث المعجزات أمرًا غير محتمل فقد استقر الرأى على أن أتزوج نوال.
ذهبت إلى الأسرة خاطبًا في ساعة من ساعات العصر الصيفية ولم تستغرق المسألة وقتًا طويلاً حتى وجدت نفسي في وسط مجموعة كبيرة من الأرقام والحسابات، وتكشف لي بشكل حقيقي مدى ضآلة المرتب الذي أتقاضاه.. لم تكن طلبات أمها التي تصل عن طريق صوت أبيها الخشن سوى نوع جديد من الأوامر التي يجب أن أطيعها كما لم أطع أحدًا من قبل. فبعد عدة خطوات أصبح للعملية كلها قانونها الخاص الذي يسيرها ويدفعها إلى الأمام ويدفع بي كذلك إلى داخل هذا الحلم الغامض الذي تشغل نوال مركزه.. وتمتلئ أطرافه بعشرات التفاصيل من المقاعد والدواليب وأشياء السفرة والمطبخ وقماش التنجيد ونجف الصالة والصالون.
وبمرور الأيام والشهور أصبحت رغبتي في الحصول على نوال أكبر من أي شيء آخر في حياتي.. وتحولت إلى بهلوان يقفز فوق كل الحواجز لكي يصل إلى ما تبديه وتغطيه كقماش مصارع الثيران الأحمر.
كنت أحمل الربط واللفف إلى بيتهم وأهرول بها على السلم الضيق حيث أضعها في الصالة فتختفي إلى الأبد ولا أعود أراها أو أسمع عنها. وكانت أمها تبتسم لي مشجعة وأبوها يربت على كتفي ثم يدفعونني إلى الباب مرة أخرى لكي أعود للقفز والسلف والشراء.
قالت لي نوال وهي تذوب رقة إنها تعرف كم تعذبني هذه الأشياء ولا بد أن طلبات وشروط العائلة ترهقني.. ولكن ماذا نفعل في هذه الشكليات الضرورية.. لا بأس.. لا بأس.. فهي سوف تذيقني ذوب الحنان والحب والإخلاص.
وقال لي زميلي في العمل لماذا كل هذه التكاليف.. أنت رجل فلاح بسيط ولا يجب أن تتورط في كل هذه الأعباء. ربما كان يحسدني. فهو لا يدرك أنهم يعملون لمصلحتي.. وأنهم سوف يعطونني ابنتهم، أغلى ما عندهم، وسوف ينقلونني أيضًا إلى طبقة أخرى غير تلك التي كان يبدو أنها قدري.
قلت لنوال كل شيء في المرات التي خرجنا فيها إلى السينما وجلسنا في الكازينو. قلت لها إنني فقير وإن أبي عندما مات وتركني وحدي مع أمي الريفية العجوز لم يكن يحلم أن أواصل تعليمي.. ولكن هذه المرأة العجوز القابعة في البيت الطيني، وسط عشرات البيوت الطينية دفعت بي إلى المدارس والجامعة وإلى الوظيفة وهي لا تزال باقية هناك.
كانت نوال تستمع إليّ ويبدو عليها التأثر وتبدي إعجابها بهذه الأم. وهذه الحياة. وتقول لي سوف نزورها يومًا ما بعد الزواج ونرد لها بعض الجميل.
وأهم ما قالته لي نوال: نحن حقًّا متفاهمان. ومن حسن الحظ التقينا وبعد ذلك لا يهم أي شيء.
شارفت المسألة على النهاية.. وتراكمت.. في الورقة الصغيرة ـ التي صرت احتفظ بها دائمًا في محفظتي ـ أعداد كبيرة من الديون ولكنني صرت أقرب ما أكون إلى امتلاك نوال.
وفجأة تكشف لي أن البند الأخير في قائمة الطلبات الطويلة وهو مصاريف الفرح أكبر من أن أستطيع التصرف فيه. حاولت أن أجد مخرجًا ولكن المدينة كلها كانت قد أغلقت أبوابها. صعدت سلم بيت نوال الضيق لكي أخبرهم بالأزمة فلم أجد أحدًا يسمع لي. شاهدت نوال وهي ترتمي على السرير باكية وسمعت أمها وهي تهون عليها بكلمات تريدني أن أسمعها.. فشعرت بعد ذلك بتهديد أكيد.

في الصباح انطلقت مسرعًا إلى قريتنا. وجدتها هناك كما تركتها جالسة في صحن الدار وحيدة وحولها بعض الدجاج. قالت أمي «مالك يا بني» فقلت لها كلامًا كاذبًا فصدقته، عن أزمة في العمل ونقود يجب أن تدفع. لم أكن أستطيع أن أحكي لها عن الزواج، فهي لا تزال تعامل بنت عمي على أنها زوجتي المقبلة.. قامت وفتحت الدولاب الخشبي الصغير وأخرجت الغويشة الذهب الباقية ووضعتها في منديل ودست بها إلى جيب جاكتتي. وقالت وهي تودعني: إنني يجب أن أرى أولاد عمي فهم يسألون عني دائمًا.

وركبت التاكسي عائدًا إلى القاهرة. كنت أتحسس الغويشة وأحلم بالفرح وبنوال. وغابت صورة أمي وسط عشرات التفاصيل التي أخذت أفكر فيها ولكنني عندما وصلت إلى القاهرة قلت لنفسي.. لقد كان من حق هذه المرأة العجوز أن تفرح هي الأخرى.

تحقيق صحفي مثير..

اشتعلت النيران في قرية «كفر شمس» وأحرقت أربعة عشر بيتا من بيوت الفلاحين. اقترحت أنا في مجلس التحرير أن أذهب لكتابة موضوع عن الحادث، فوافق رئيس التحرير، وصرفت لأجل ذلك بدل سفر.

اختلط صوت عال لشريط مداح جديد بصخب موقف «أحمد حلمي» وانطلق بي التاكسي «البيجو» إلى قلب الدلتا. اشتعلت رأسي بصورة محورية للموضوع الذي سأكتبه، صورة تختلط فيها جثث الأطفال والنساء المحترقة بخضرة الحقول، وأعواد القطن والذرة الجافة بكلمات مأساوية عن تقصير السلطات المحلية وسوء الطرق الذي أدى إلى استفحال المأساة. تصورت أنهم ـ بالتأكيد ـ سيفردون الصفحات الأولى من المجلة للموضوع الذي سأكتبه.

صمت الركاب، ونهمهم للأكل والتدخين أوصلني إلى المركز القريب، ثم أسقطتني عربة أخرى مزدحمة بأطفال وصبية المدارس العائدين من مدارسهم عند مدخل قرية «كفر شمس».

لم أجد لهبا ولا حتى رمادًا وقادني طابور طويل من التلاميذ الذين يحملون حقائب قديمة، ويثيرون حولهم ترابا كثيفا إلى القرية، صوتهم عال. ولكنه يذوب في الحقول البعيدة. عرفت من رفاق الطريق المترب أن للحريق كان منذ أسبوع. وأنه وقع في طرف القرية الشمالي. وأن هناك إيواء وتحقيقات ما زالت تجرى في الوحدة الزراعية. لم يكن الحريق ضحايا، ولكن ـ فقط ـ إصابات قليلة تتماثل الآن للشفاء.

في دار الوحدة الزراعية حدثت لي مفاجأة. فبعد أن سرت ساعة الغروب، الذي اقترب، على الممشى المرصوف ببلاط قديم، ومررت على أحواض زرع ملأتها حشائش طويلة، دخلت إلى صالة أكل النشع جدرانها، هناك تنتظرني المفاجأة، صديقي الدكتور البيطري ألفريد حبيب، يحل الكلمات المتقاطعة على مكتب معدني رمادي اللون مقشور الدهان.

خبط على المكتب بقبضته وصاح..

ـ أخيرًا.. اكتملت المأساة المضحكة.

كان صديقا قديما ترجع صداقتنا إلى أيام التنظيمات الشيوعية القديمة. لكنه الآن سمين أصلع منتفخ الأوداج. لم يبق منه سوى عيونه القلقة، وكلماته الحادة السريعة التي تشبه الطلقات.

ـ أهلا بالصحافة. جئت تتفرج وتكتب عنا تحقيقًا مثيرًا. جئت من أجل الحريق.. الآن فقط وصل دخان الحريق إلى القاهرة. طفوها خلاص. اكتب الآن يا رفيق عن الحريق الدائم. هل تعرف؟ هل تستطيع؟

أعرف هذه النبرة الهجومية، وأعرف أن أحسن طريق لامتصاص عنفها هو عدم الاعتراض أو الوقوع في الاستفزاز. نجحت بعد قليل في أن أجعله يهدأ ويحكي عن السنوات التي لم نلتق فيها.

الآن أعيش مع عشر بقرات «فريزين» مستوردة. أبحث لها عن طعام، وأعطيها حقن وأدوية. وأبيع لبنها لشركة قطاع عام. تجارب. طول عمرنا في تجارب. مرة على الناس ومرة على البقر. تعرف أنا بس باتخن.. البقر لا.. البقر مش عاجبه جو مصر. عاوز يهاجر.. عاوز عقد عمل. وبعدين صاحبة الجلالة تنهز وتيجي لغاية هنا، علشان حريقة قامت في عشتين وشوية حطب.

في الليل عندما ذهبنا إلى غرفته الصغيرة لكي نمضي الليلة معا، كان هو قد أصبح كنار صفت وكادت تتحول إلى رماد. تكوم على سريره المعدني، وجمع ساقيه بيديه، وأخذ ينتظر إبريق الشاي

الذي وضعه على السخان الكهربائي الصغير. كنت أستمع إليه، وأنا الآخر أذوي وأتعجب لما حدث لصديقي ولما حدث في حياتنا جميعًا.
مش عارف إزاي الواحد فقد إحساسه بالزمان والمكان. بعد ٦٧ الواحد ما شفش يوم عدل. كل الحاجات اتساوت، وكل الأماكن بقت زي بعض. الواحد كان لازم يتولد يهودي، ويعيش في «كيبوتز» تحت الأرض علشان يعرف عروق الخراب والشر الموجودة في المنطقة دي أصلها إيه. بص من الشباك تلاقي بيوت الطوب الأحمر اللي بناها العساكر اللي رجعوا من اليمن، وجنبها البيوت الطين القديمة زي ماهية، وجنبها الوحدة الزراعية والوحدة الصحية، والمدرسة الجديدة وبينها المصرف وحواليه ماء النشع والمجاري. وحقول صفراء ما عدتش بتجيب حاجة، نص الرجالة مسافر، ونص النسوان حيطق من الغيظ والفقر. والعيال تايهين وسط تراب السكك ومسلسلات التليفزيون. وأنا قاعد في الوحدة الزراعية أعبي الشمس في قزايز، وأتخن.. تعرف تقولي إحنا رايحين فين؟!
حاولت أن أتقي الضربات والطلقات التي يطلقها في كل اتجاه.. حاولت أن أقول إننا نبنى الحياة يوما بعد يوم. وإن الله خلق الدنيا في ستة أو سبعة أيام. وإن الإنسان مثل النمل لم تبق له سوى الأعمال المتكررة الصغيرة. ولكنه لم يقتنع. ظل يذرع الغرفة الصغيرة جيئة وذهابا، كدب أبيض حبيس.
تمددت أنا على السرير. واستمر هو يلقي خطبا بالعامية والفصحى قبل أن يحل بي النعاس، كانت الصور المشتعلة في رأسي قد خمدت وتبددت أحلامي بكتابة تحقيق صحفي مثير، هباء.

العقرب

زوجتة سوف ترفض السفر معه إلى الأقصر بالتأكيد. له زوجة سمينة وبيضاء. عندها كثير من القوة تغطيها بشحمها وجلدها السميك، مشاعره معها تصدر كلها عن إحساسه بأنه مظلوم إلى جوارها ومغبون. قالت له مرة وعيناها السوداوان المليئتان بالكحل تدوران في وجهها اللامع:

ـ أنا أروح وسط العقارب والحر.. ليه؟ عاوز تموتني طيب وأنا مالي، ذنبي إيه؟!

لم يكن يفعل سوى أن يحدق فيها في بلادة، يحدق في جسدها الكبير وتستغرق عيناه في الثنايا والتجاعيد ولا يجد كلاما يقوله لها. ليس بينهما منطق أو لغة وكأنهما لا يعيشان معا في شقة واحدة.

ومرة أخرى أجهشت بالبكاء، اهتز جسدها وهي راقدة إلى جواره في السرير، كان متأكدا أنها تتصنع.. تعتقد أنها أخافته وها هي تحاول أن تسترحمه.. زوجة حكيمة بلهاء. لم يقل شيئًا، واستدار. حاول أن ينام ولكنها كانت تغط في النوم منذ وقت طويل عندما غلبه هو النعاس.

وعندما حان عصر اليوم الذي سيسافر فيه، كانت تقف في وسط الصالة، ترتدي قميص النوم الذي يكشف عن صدرها البدين المترهل وتستند بيدها على المشمع الكالح وهي لا تستطيع إخفاء قلقها المتوتر فتصنع على وجهها قناعا لزجا من التأثر. وكان صوتها الذي يشبه صوت الوز يردد بلا نغم:

ـ مع السلامة. مع السلامة تروح وتيجي بالسلامة، لقد أحس بكثير من الراحة وهو يغادر البيت في طريقه إلى المحطة ليلحق بقطار الثامنة.. وضاع في وسط الزحام. وعندما أفاق وجد نفسه في ديوان مزدحم، فيه رجال يتكلمون بصوت عال فأخذ يراقبهم، ولم تمض ساعات حتى كان قد مل الجلوس والقيام، وثقل التراب على عينيه فاختلطت وجوه الجالسين واستسلم لصوت القطار وللظلام المتكرر خارج النافذة.

على الرغم من أنه ليس سوى موظف كتابي صغير، وأنه ليس على الكادر الفني إلا أن زملاءه في العمل قد استقبلوه في الصباح استقبالا طيبا. عندما جلس إلى النافذة في مكتب رئيس القلم، وكان يرى في الخارج الحقول الهادئة تمتد أمامه لا يتحرك فيها سوى جاموسة أو جاموستين، اعتقد أن حياته هنا ستكون سعيدة، أو أنه على الأقل سيستطيع أن يلم في هذا المكان الهادئ أشتات نفسه المبعثرة.

ـ في الحقيقة البلد ما فيهاش استراحة فاضية، لكن مؤقتا حتنزل مع الأستاذ سيد في البر الغربي. تعدي النيل، وربع ساعة تكون هناك، استراحة نظيفة وفاضية..

فشكر له اهتمامه ورقته، وقال إنه لا يهمه أي مكان ولكن المهم أن يجد حوله ناسًا طيبين.

وفي العصر عندما كان هو وزميله الأستاذ سيد في طريقهما إلى الاستراحة انتابه إحساس مفاجئ بالحنان والرقة..

إحساس غامض وبعيد كأنه قادم من عالم آخر، وقد كان هو وسيد يسيران في طريق زراعي وسط الحقول. والعلاقة بينهما لا تزال في حدودهما الرسمية. صحيح أن مثل هذه العلاقة يمكن أن تكون عبئًا ولكن ربما لأن سيد كان صغيرا في السن وعلى وجهه ابتسامة مرحة وطبيعية، فقد أحس هو أنه مرتاح إلى صحبته.. وأن كل شيء هنا سيسير على ما يرام.

ـ أهي يا سيدي، الاستراحة بتاعتنا.. فيلا وسط الغيطان.

ـ يا سلام.. دي قريبة كمان من الجبل.

ـ بعيد عن مصر ودوشة مصر، وابتسم كلاهما وهما يدخلان من باب الحديقة، وأسرع الغفير يحمل الشنطة ويرحب بالزائر الجديد.
ومرت أيام وبدأ يحب هذا المكان. كان يجلس في العصر على كرسى من الخيزران ويدير وجهه ناحية الصحراء يراقب الشمس وهي تغرب، وتختلط ذكريات المدينة في رأسه بالراحة والغموض الذي بدأ يشعر به في هذا المكان، كان يشعر في بعض اللحظات أنه قد انسحب من مسئولياته وأنه قد أسلم حياته لموجات صغيرة متتابعة كأنها موجات النيل، يحب أن يسمع حكايات الغفير في المساء.. وأن يستلقي على السرير الجاف في الليل ويحدق في السقف ويستمع إلى الأصوات الغريبة تنبعث من حوله داخل الحجرة وفي الحقول.
لم تعد الأيام معلقة رتيبة تضغط عليه مثلما كانت تفعل في القاهرة ولكنها أصبحت تأخذه إليها فيشعر خلالها بعزلة رحيمة تحيط نفسه وتبعث فيها كل يوم مزيدا من الطمأنينة والهدوء.. وأن الحياة عموما قد أصبحت عادلة بالنسبة له.
وحتى أطرافه الذابلة أصبحت الآن تمتلئ بدبيب يشبه دبيب جيش صغير من النمل الطيب عندما يخرج في نزهة ليلية أو يراقب ظهور القمر بعد الغروب.
كان في بعض الأحيان يحاول أن يتذكر زوجته ولكن صورتها لم تكن تجيء. يسود نفسه بدلا من الصورة بعض التوتر والقلق الذي لا يلبث أن يزول عندما يخرج ليتجول أو يجلس إلى غفير الاستراحة ويتركه يسترسل في الحديث.
وفي بعض الأحيان كان يأتي زميله سيد ليعرض عليه في لطف أن يصحبه في زيارة أو لحضور فرح فكان يعتذر ويقول إنه يفضل البقاء في الاستراحة، فيضحك سيد وهو ينصرف قائلا:
ـ لا يا عم إنت الظاهر الحتة عجباك قوي، تكونش عاوز تكتب شعر.
مضى شهر ونصف وكادت الشمس أن تصبح عمودية على الأقصر. فكان يرى وهو عائد إلى الاستراحة سحابات لامعة من الوهج تتألق فوق خضرة الحقول وتنعكس على حدقة عينيه فيغلقهما في إرهاق.
وفي الليل كانت الحرارة تدفع بالعقارب من تحت الأحجار فتخرج ساعية فوق الرمال وقد رفعت ذنبها المليء بالسم. حتى سيد زميله لم يعد يراه، وإذا رآه في الاستراحة فمقابلة سريعة عابرة.. إن الحياة تتحول بسرعة إلى كوب من الماء الساخن لا طعم له ولا مذاق. وفي تلك الليلة لم يكن في السماء الداكنة سوى خيط رفيع من النور، وهبط عليه فجأة شعور أجوف بالفراغ واستقر رأيه على أن يطلب في الغد إجازة.
وعندما كان يسير عائدًا إلى الاستراحة وهو يحاذر العقارب طلع له الغفير فجأة وقال له:
ـ مالك يا أستاذ. أنت خايف من العقارب ولّا إيه؟!
ـ أبدًا.. الواحد مالهش مزاج.
ـ كله بتاع ربنا، كل شيء بتاع ربنا.
وفي الصباح حشد ملابسه المتسخة كلها في الحقيبة وأغلقها في صعوبة وأخذها معه إلى المكتب، قدم الإجازة وعلى وجهه تجهم شديد وقال له رئيسه وهو يوافق على الطلب.
ـ عايزينك كده ترجع لنا رايق.. يا أخي ما تخلي الست تيجي معاك.
ـ متشكرين قوي.. ربنا يعمل اللي فيه الخير.
وفي القطار استغرقه تعب وإرهاق شديد.

في البيت كان كل شيء كما تركه.. هو الذي تغير. لقد أصبح أكثر ضيقا، وأحس أن زوجته أكثر بدانة وغباء.
ألقى الحقيبة على المنضدة، واستلقى على الكنبة. وكانت هي لا تزال مضطربة تبحث عن الشيء الجديد الذي حل في وجهه. ولكي يقطع الصمت الذي انتصب بينهما قال لها وهو يذهب إلى حجرة النوم.
ـ الشنطة فيها هدوم وسخة.. اغسليهم.
أحست في صوته بشيء حازم وغريب.. فسحبت الشنطة واتجهت بها إلى الحمام. مضت لحظات وهو يحدق في ظلام غرفة النوم الرطب وفجأة دوت في صمت الشقة صرخة حادة.
كانت الشنطة مفتوحة والهدوم متناثرة حولها. أما هي فكانت تمسك أصبعها وترفعه إلى السقف، وقد تقلص وجهها من الألم والخوف وأمامها فوق أحد القمصان كان تقف عقرب كبيرة متحجرة بعد أن قرصت الإصبع البدين.
تحركت عيناه من العقرب إلى زوجته. ومن زوجته إلى العقرب وغرق في نوبة من الضحك.

العودة إلى القاهرة

كان كل المركز يبدو له صغيرًا ضيقا، شوارعه كأنها مسدودة. الآن قد أصبح يستعجل دون جدوى الساعات البطيئة لتنتهي به إلى الرحلة المنتظرة.
أنور معاون الصحة في أحد المراكز التابعة لمحافظة المنيا سوف يرحل قرب الفجر، في رحلة تستغرق يوما وليلة إلى القاهرة في مهمة رسمية.
أنور أبيض سمين دون ترهل، تعدى الثلاثين بسنوات، كل مدة خدمته قضاها في الأقاليم، مدة خدمته تبدو له وكأنها كل حياته، يمكنه أن يتصور أنه ولد في أحد مكاتب الصحة هذه، على الكرسي القش، أمام المكتب، إلى جوار النافذة.
يحب أن يكون له مسكن نظيف. يحب أن يتعاطى بعض الأدوية والمقويات، ويحب أن يحفف شاربه، وأن يعتني بعضلات صدره، الذي يحب انفتاحه خصوصا عندما يرتدي بدلته الشتوية، ويحب أن يقرأ الجريدة على مهل في العصر. وأن يحتفظ ببعض المجلات، ويقلب فيها، وينفض عنها التراب، في صباح يوم الجمعة عندما لا يغادر مسكنه.
هو لا يحب الذين يشكون ولا يحب الذين يتكلمون عن أنفسهم ويدخلون الناس في كل شئونهم الخاصة. ولا يحب أن يتدخل أحد في عمله، حتى الأطباء.. الذين حاول بعضهم أن يدخل معه في علاقة صداقة أو شيء من هذا القبيل ولكنه كان يبقيها دائمًا في الحدود الرسمية.
موظف مستقيم، لا يسرق، ولا يرتشي، ولا يحب أصلا التجارب الحادة أو المغامرات، خدم في المدينة الكبيرة شهورا في أول التعيين، ثم تنقل في القرى ولكنه يفضل الخدمة في المراكز والبنادر.
ولا يحلم على الإطلاق.
من الذي يتكلم عن القاهرة.
الساعات بطيئة بعد أن أخذ أوراق السفر غادر المكتب ووضع الأوراق الرسمية في الشنطة فوق البيچامة والفوطة والقميص النظيف.. ترك الشنطة على الكرسي بجوار الباب، وغادر البيت إلى الميدان الذي يتوسط المركز حيث محطة القطار. لم يكن اليوم يوم خميس ولكنه يوم في منتصف الأسبوع. لا يغادر المركز أحد، ولا يرد إليه أحد.
أغلب هذه الوجوه تعرفه، وهو يعرفهم، ولكن الجميع الآن يبدون وكأنهم يتحركون في سراب فوق أرض ملساء، الشوارع لا تؤدى إلى شيء. أشجار «دقن الباشا» الكبيرة تحيط بالمحطة وتغلفها بستارة صفراء غامضة، تشرب شمس العصر لكي تفرز ببطء شديد ظلمة الغروب والمساء، وعينا أنور مغلقتان تحومان فوق المكان لتسقط فوق قضبان القطار اللامعة التي تمتد إلى هناك.
عاد إلى مسكنه، كل شيء مرتب وفي مكانه.. تماما كما تركه، قلب في الجريدة.. وقرر أن يتركها ليقرأها بعد عودته. تصفح في المجلات ووقف يصنع لنفسه كوبا من الشاي ثم جلس يشربه. أفكار تقفز وتطل برأسها، ولكنه يتلفت حوله، تمسكا بأهداب حكمة تراكمت خلال السنوات الطويلة من الخدمة في الأقاليم.
كان يجب أن يرتب اليوم لقاء بينه وبين المرأة التي تزوره. وأن يغلق عليها وعليه الباب حتى موعد القطار، ولكنه فضل أن يبقى وحيدا وها هو الآن لا يدرى ماذا يفعل بوحدته.
أرسل في طلب فراش المكتب الذي يؤدي له كل الخدمات، جاء إليه بعد لحظات لم يدر ماذا يقول له. أخذ الفراش يدور في الشقة يقول أشياء لا ضرورة لها. وصنع لنفسه شايا. ودخن ثلاث سجائر

وهو يتبادل الحديث مع حضرة المعاون في مواضيع مختلفة.
أول الليل يزحف في كسل، وأمامه الليل كله. القطار لن يغادر قبل الثالثة. الفراش يقترح أن يذهبا معا إلى منزله حتى تعد لهما زوجته عشاء بسيطًا، ويقضيا بعض الوقت، ولكنه يرفض، وينزل مرة أخرى إلى الميدان حيث يتركه الفراش لكي يذهب إلى منزله.
ليس في الميدان سوى نور خافت وبعض النائمين لصق جدار المحطة. الدكان الذي يعرفه نصف مضاء، يقدم لبعض الزبائن.. بعض الشراب.
إنه لا يجلس هنا إلا نادرا.
ولكنه يشرب الليلة، ويحسب النقود، ويستجمع شجاعته ليجعل الأشياء التي تدور تثبت في مكانها.
«قلقاسة» الذي يقدم الشراب للموائد القليلة الباقية يلتفت إليه كثيرًا، ثم تهرب عيناه من عيني أنور اللتين تنطقان بالجد والأهمية.
قد يحدث شيء.
هل يعرف قلقاسة هذا معنى العودة إلى القاهرة.
واستقر أخيرا في مقعد الدرجة الثانية الوثير. الليل حوله مظلم. يمر القطار بعشرات القرى. لا يقف. المحطات نائمة لا تدري هي الأخرى معنى العودة إلى القاهرة. وعندما بدأت آثار الخمر الرديئة تتبخر من رأسه كان الصباح يطلع عليها بضوئه اللاسع.
ارتدى قميصه النظيف في القطار وأسرع في شوارع القاهرة، ليكون في المستشفى الكبير قبل زحمة الزوار.
أمضى النهار كله في المستشفى. وسلم على بعض الزملاء القدامى، سلم الدفاتر والأوراق وأنهى المهمة مع الموظفين، وفي الثالثة كان يراقب الجميع عائدين إلى منازلهم، الحقيبة في يده، لا داعى للذهاب إلى أي لوكاندة.
قد يحدث شيء.
تطلع أنور في الوجوه وجمع لنفسه بعض الملاحظات وتذكر أحاديثه مع فراش المكتب. والمرأة التي تزوره، وعيني «قلقاسة» ورأى في الشارع وجوها كبيرة تسأله عن معنى العودة إلى القاهرة.
أخذت الساعات البطيئة تدفعه في دوران لا ينتهي حول «باب الحديد» منتظرًا قطار المساء الذي يغادر القاهرة في أول الليل

الكاتب والحبوب

عندما فتح عينيه سأل نفسه لماذا يكتب؟ حاول أن يغمض عينيه مرة أخرى لعله يجد في الظلام جوابا لا يصل إليه في النور.. لكن الدنيا دارت به، وأخذ يتقلب في الفراش فنهض قبل أن تستيقظ زوجته.
شرب قهوة وعددا من السجائر وهو يجمع أوراق القصص الثلاث التي سيحملها اليوم إلى القاهرة وأخرج من أركان الحجرة عددًا من الكتب القديمة التي سيحملها للأصدقاء هناك وأسرع يرتدي ملابس خفيفة وبسيطة، عندما نظر في المرآة نصف المعتمة قال لنفسه.. أعتقد أنه لا يبدو عليّ أنني كاتب من الأقاليم.
كتب القصص الثلاث خلال الشهر الماضي. وأحبها. أحب الوضوح والبساطة التي حاول الوصول إليها.
القصة الأولى عن ورد النيل. قرأ في تاريخ النبات وتاريخ الفراعنة ورجع إلى قصاصات كثيرة جمعها من الجرائد والمجلات، الثانية كانت عن سلم خشبي مكسور في بيتهم الريفي القديم.. كان كابوسًا دائمًا.. أحس وهو يكتب القصة أنه يتخلص من الكابوس. وأحس أنه وصل إلى إيقاع جديد، وحلو. فسماها السلم. إنها موسيقى صرفة، هكذا يعتقد.
أما الثالثة فقد كانت عن الصياد العجوز الذي كان يعيش إلى جوار الكوبرى القديم في قريتهم، كان ينظر إليه على اعتباره نبيا يدعو إلى العودة إلى الطبيعة. لقد وضع في هذه القصة رسالة. ساوره شك كبير وهو يكتبها.. هل يحتمل الفن كل هذه المباشرة والكلام الصريح!
منذ أن عاش هنا، أربع سنوات الآن، وهو يحاول الكتابة، يقرأ ويفكر، ويكتب في كل الليالي. يبحث في الفجر عن الأفكار، ويخط أثناء عمله في الأوراق، ويحاول أن يتحدث إلى زوجته في لحظات الصفاء عن معنى الكتابة ودورالكاتب بالنسبة للمجتمع. كان يحدق في وجهها وهي نائمة ويسأل نفسه.. هل هي مقتنعة به؟ هل ستجمع أوراقه بعد أن يموت؟ القصص المتباعدة التي نشرت له لا تعنى شيئًا! كل شيء هنا في رأسه. في قلبه. في عيونه التي ترى.. وعلى طرف هذا القلم الذي لا يريد أن يفصح عن كل شيء.
دخلت عليه غرفته بشوشة وقالت: تسافر اليوم؟ لا تنس حبوب الولد. ولا تتأخر علينا. ساعدته في جمع أوراقه، وعادت تحمل له طفلهما الصغير لكي يقبله.
أسرع خارجا وهو يقبض في يده على الأوراق المطبوعة على الماكينة وعلى الكتب. أجزاء من قلبه وروحه، بعضها في صفاء زوجته وحنانها.
عندما دخل إلى زحام شوارع القاهرة، أحس بالخوف والحرج، أزعج بطء حركته سائق العربة الذي كاد يصدمه وهو يعبر الشارع أمام المجلة التي يقصدها. صاح فيه قائلا: فتح يا فلاح.
كان الناقد الكبير يتحدث في التليفون رحب به وأشار إلى مقعد قريب.. تأمل الصور والزجاج اللامع وأخرج الأوراق، أعاد النظر فيها وتوقف عند الكلمات والجمل التي يحبها، حتى يفرغ الناقد من حديثة التليفوني الطويل، شرب شايا لا طعم له، عاوده السؤال.. لماذا يكتب؟ ولمن؟
تبادل معه كلمات قليلة، ثم دخلت فتاة حسناء فسكت، نظر إلى حذائه المترب. امتلأت الغرفة بعدد من الناس. مد الناقد يده فأعطاه القصص، حاول أن يتكلم ولكن رنين التليفون أسكته.
أخيرا نظر الناقد إلى أوراقه وقال: عال.. عال. ثلاثة مرة واحدة، نحن نعرف أنك على الطريق، ستأخذ القصص دورها.. لا تتأخر علينا، نريد دائمًا أن نراك.. شكرًا.

قام واقفا، أحس بحرج شديد وهو يخرج من الحجرة وكأن قلبه قد انتزع منه.
عندما أدار المفتاح في باب الشقة سمع بكاء طفله، كانت زوجته واقفة في الصالة. قالت له: حمدا لله على السلامة، هل أحضرت الحبوب؟ فعاوده دوار شديد.

أصــول اللعبـة

كنت أشعر به دائما ورائي، عيونه في ظهري وعند أطراف أصابعي. هو زميلي في المكتب ورفيقي في كثير من أوقات الفراغ واللهو. لكن وجوده يخنقني ويهدد أمني واستقراري.
أذكر جيدا متى بدأ يراودني هذا الشعور. أعرف أنه لم يفارقني من يومها، يوم أن رأيت زميلي ممسكا بخطاب من خطابات العمل الرسمية، يتهامس في نهاية الغرفة مع رئيسنا، ويكرر الإيماء برأسه ناحيتي وكأنني موضوع الحديث.
لم يفارقني من يومها الشعور بأنه عين عليّ. لم أصارح أحدا، لم أصارحه طبعا، لكنني من يومها أخذت أرقب زحف ظل وجوده الثقيل على أدق تفاصيل حياتي.
كان التنافس في مكتبنا جادًّا، وقد زاده اشتعالا ذلك الرواج الذي ساد أعمال رئيسنا وتلك النظرة اللاهية للحماس الواعدة بالمكافأة التي أطلقها علينا، كان يجيد تبديل مواقع موظفيه منه، حتى يكتسب ما عندهم ويضمن ولاءهم.
أخشى ما أخشاه كانت نظرة اللامبالاة التي يمر بها رئيسي فوق مكتبي كل صباح بخطواته المتعجلة ووجهه الحليق.
إن كلي ثقة بأن هناك ارتباطا أكيدًا بين نظرة رئيسي اللامبالية التي تعبرني كل صباح، وبين حديث النميمة الذي دار بينه وبين زميلي في نهاية الغرفة.
زادت في قلبي الهواجس، وأصبحت أشك في كل تصرفاتي وأراجع أوراق العمل أكثر من مرة، بل لقد أصبحت أشك في أمانتي نفسها وولائي لصاحب العمل.
استعنت على أوهامي بالخلق الكريم، وبابتسامة حائرة أخفيت بها خوفي، ولكن شعوري بأن زميلي يراقبني ويشي بي، أثقل أطرافي وحط على قلبي بهم كبير.
وحتى في ذلك الصباح المبكر عندما وقف رئيسنا أمام مكتبي ليعلن لي أنه قد استغنى عن خدمات زميلي نهائيا، أصبحت أنا مسئولا أمامه عن كل شيء، لم يفارقني الشعور بأن زميلي يراقبني، ورأيت عينيه تملآن الجدار خلف رئيسي فتلفت حولي في فزع.

الــوقـــح

انتهى النهار ولم يبق على حضور المدعوين سوى ساعات قليلة. زملاؤه في العمل مدعوون عنده في سهرة كبيرة للتهنئة بالترقية الاستثنائية التي حصل عليها.
اختار من بين الزملاء أهمهم وأنفعهم، وملأ البيت بالطعام والشراب، فتح نوافذ الشقة الكثيرة التي لا يفتحها إلا قليلاً وارتدى قميصًا جديدًا، وبقي ينتظر توافدهم في أول المساء.
تذكر أنه لم يلق على زوجته التعليمات الأخيرة، بخصوص التصرف، وترتيب تقديم الطعام، والاهتمام بهذا وذاك، فأسرع إليها في حجرة النوم وهي ترتدي ملابسها وقف يلقي تعليماته الأخيرة.
كانت عيناها الواسعتان مليئتين بالذعر والارتباك، وأخذت تستمع إلى تعليماته وهو يردد بين كلمة وأخرى، «واخدة بالك.. واخدة بالك» وتهز رأسها في استسلام وعجز.
لقد مضت سنوات خمس هي كل فترة زواجهما، هو يجري بهذا الشكل، يحصل على ترقية وراء أخرى ويلهث وراء الفرص هنا وهناك ويسحبها من يدها مغمضة العينين وكأنها منومة.
كلما زاد نجاحه في العمل زاد الفراغ الذي يملأ صدره ويطل من عينيه، كان يحب السيطرة أكثر، والتدخل في كل كبيرة وصغيرة، حتى في البيت والمطبخ وترتيب الأشياء في الحمام.
كانت تسأل نفسها لماذا يحتاج مثل هذا الرجل إلى زوجة. وفي قلبها لم تكن تجد إجابة، ولكنه كان يقول لها دون أن تسأله.. «أنت شريكة حياتي، جزء من النجاح الذي أريده».
لم ينجبا أولادًا، وعندما يثار موضوع الأولاد كان يقول بسرعة: كويس كده.. كويس.. مش وقته.
وقف إلى جوارها في المرآة، وسوى شعره، ووضع نقطة من الرائحة النفاذة التي يستعملها وطبع على جبهتها قبلة باردة، وقال: «كله تمام».. وابتسما.
أضاء الأنوار في الصالة الكبيرة ووقف وحده ينتظر كان يبدو واثقًا من نفسه راضيًا كل الرضى عن الأشياء المحيطة به ولو لم تكن تعرفه لشعرت أنه جزء من هذا الأثاث اللامع المحدد الزوايا.
لحظات بداية الحفل كانت ثقيلة وبطيئة، فأول الحاضرين هم صغار الزملاء الذين يراقبون كل شيء في برود ولا يحسنون إخفاء غيرتهم من نجاحه، وهو أيضًا لم يكن يبذل جهدًا لتسليتهم أو الاهتمام بهم، فتركهم لزوجته تقول كلمة هنا وكلمة هناك وتوزع عليهم ابتساماتها الذابلة.
تقدم الليل وامتلأت الشقة بالضيوف وجاء المدير وكبار المسئولين في الشركة، وبدأ الداعي يظهر كل براعته، كان ينتقل بين ضيوفه المهمين، تجده دائمًا في المكان الملائم، يقول كلمته البارعة القصيرة والسريعة ويبعث هنا الابتسام وهناك الضحك الصاخب.
ومع المساء الذي كان يتقدم والشراب الذي ينسكب بوفرة، امتلأت أركان الشقة بكلمات تقال في همس بين اثنين أو ثلاثة تسكت عندما يقترب وتعلو عندما يبتعد.. وهو يطارد الكلمات كأنه قناص ماهر.
وعيون الزملاء تراقب كل شيء في الشقة، تتحسس الأثاث وتفسر الوفرة في كل شيء عشرات التفسيرات.
لقد سمعت زوجتة كلمات: منافق.. وقح.. تتردد في أحد الأركان، وتلفتت حولها في ذعر وكأنها تخشى أن يتحطم كل شيء.. ولكن الكلمات كانت تذوب.. تلفها الابتسامات والتهاني والكلمات الأخرى المغلفة في «السلوفان».

أخذ الجميع يسمعون في هدوء لصوت المدير الرزين المتزن وهو يقرظ الداعي ويقول إنه يستطيع أن يعطى العمل كل نفسه وإنه حقًّا أحد القلائل الذين يمتازون بالطاعة والنظام، وسلط عينيه في عيون الحاضرين ليسكت ما يدور في عقولهم.
كان وجهه يقطر بالسعادة التي حاول إخفاءها وراء القناع المنشغل الذي يكسو به تقاطيعه. ولكن زوجته استطاعت أن ترى النهم يملأ كل الفراغ الذي تعرف أنه يسكن صدره.
قام المدير يصحبه المسئولون في الشركة ووقف هو وزوجته على الباب ليودعا الجميع وهم ينصرفون، تاركين في كل مكان بقايا الأشياء والنظرات والكلمات.
كانت زوجتة تشعر أن الجميع ينظرون إليها على أنها جزء من هذا النجاح، جزء يملكه ويحسن الدفاع عنه.
وعندما صارا وحيدين، دار في الشقة يبتسم لنفسه، ووقف في نفس الصالة صلبا ومنتصرًا. دخلت هي إلى غرفة النوم تزيل آثار الزينة. وبقي هو جالسًا في الكرسى يبتسم لنفسه ويعانق النجاح.

المرمطون

غلب أحمد النعاس فنام على الكرسي في آخر المقهى. كان متعبًا وعيناه تؤلمانه. كل جسده يؤلمه، الساقان، والأكتاف، وعضلات الظهر، فما إن رأى الكرسي القديم في ركن المقهى الذي بدأ يخلو من الزبائن حتى جلس عليه وراح في نوم ريفي ثقيل.
كان آخر ما رآه هو الساقان المنفرجتان لزوجة الخواجة وقد مالت عليه تراجعه في الحساب، مقدمات النوم بالنسبة له دائمًا هي ذلك الخدر الجنسي الذي يختلط عنده بكل اللذائذ التي يعرفها النوم والأكل والتدخين وشرب الماء الساقع.
أمسكه عم علي الجرسون من نهاية رقبته المعروقة وقال:
ـ قوم.. اخلص.. عايزين نروح.
قام يسحب نفسه ليجمع الأكواب والفناجين الفارغة ويضعها في حوض الماء ويجمع المفارش.
صاح الخواجة دون أن ينظر إليه:
ـ طبق المفارش كويس.
وامتلأ فراغ المحل بجسد الزوجة البدين، الذي أخذ يتحرك في المحل في هدوء وثقة.
أطفئوا الأنوار الكبيرة، وانصرف آخر الزبائن، ذهب عم علي الجرسون إلى الخواجة وزوجته يراجعون الحساب، وبقي أحمد وحده. وجهه تحت النور الكابي بلا ملامح وعيناه حمراوان من الرموش، والجزء الذي يظهر من ساقيه في آخر جلبابه القصير رفيع بارز العظم وقد التصق الشعر الناحل فيه بالجلد السميك.
عاد إلى نفس الكرسي، عاوده نفس الخدر وهو يحدق في أرداف المرأة البارزة على حواف الكرسي، وبدأت تعاوده من جديد نوبة النوم الثقيل.. ألذ لحظات النوم تلك التي توقظه منها دائمًا يد عم علي الجرسون وهي تمسك برقبته المعروقة ويقول:
ـ تشطيب.
يسحب بصعوبة الباب المعدني الثقيل ويطفئ آخر الأنوار، يسقط أمامه ظلام شديد يشمل الموائد والمقاعد والمرايا، يتجه الخواجة خلف زوجته، ويأخذ عم علي الجرسون منه المفاتيح الثقيلة، ويختفي الجميع بسرعة في الشوارع المظلمة التي تحيط بالمقهى، ولم يعد للنوم بعد هذه «التعسيلة» الثقيلة طعم، والطريق إلى الغرفة الموجودة تحت السلم يمر بالميدان والشارع الكبير والحواري والعطوف، وليس فيها سوى ما يحمله على جسده وأقل القليل، وليس فيها هواء.
زوجة الخواجة كانت تصيح.
ـ المرمطون.. مش ينزل طلبات.
اهتزت الصينية المعدنية، وعاد يجمع الأكواب والفناجين الفارغة، يذهب خلف النصبة، عند حوض الماء يسحب قدميه على بلاط المقهى، يختلس النظر إلى زوجة الخواجة عندما يراها في أحلامه عارية تكون دائمًا هي المسيطرة ويستيقظ دائمًا وهي تصرخ فيه.
كم كان بلاط المقهى أرحم على قدميه المتعبتين من أرصفة الشارع المليئة بالمطبات والزلط.. هل سيأكل غدا مع عم علي الجرسون كما فعل اليوم.. سيجارة واحدة أم سيجارتين؟
واقترب أحمد من العطفة الأخيرة.. حيث يدخل بعد ذلك مباشرة إلى الغرفة التي يسكنها ويترك العالم ليسقط عليه ضوء الفجر، لن ينام سوى ساعات قليلة ويعود إلى المقهى في الصباح.

الدموع الحجرية

استراح جسدها بالماء الساخن في البانيو، وقف زوجها أمامها عاريا في نصف ملابسه، قال إن هناك أشياء ناقصة في حقيبة السفر الصغيرة، أحست بالخدر يزيد في أطرافها، وعدته بأن كل شيء سيكون جاهزا في الصباح.
أمسكت بمفاتيح الشقة والسيارة في يدها. وهي تدق بكعب حذائها مدخل العمارة قرب الفجر، لكي تحمله إلى المطار، قالت لنفسها.. «زوجي.. حريتي.. حبي البارد، كرخام أرض المدخل المصنوع في عمارتنا الجديدة».
طريق المطار كان يكسوه دخان وتراب يرتفعان عن مقابر القاهرة، هو إلى جوارها بعيد، أنيق، يذكرها ببعض التليفونات الضرورية، وبعض الإجراءات، قالت:
لا تخف لن أنسى شيئًا.
أخذت تفكر في لون ملابسها الداخلية في المساء، تركته للمساعد الذي ينهي له إجراءات السفر، عادت من نفس الطريق، تقود سيارتها بسرعة أكبر، مالت بجسدها في المنحنيات، وفتحت الراديو وأغلقته، واستبد بها نعاس.
الزحام، حركة الناس حول محطات الأتوبيس، ومطاعم الفول، وبائعي الجرائد، ميلاد يوم جديد لا مكان لها فيه.
عندما دقت بكعب حذائها على المدخل الرخامي المصنوع أحست أنها تدخل إلى ضريح.
دلفت إلى الشقة. أضاءت أنوار الكهرباء المباشرة وغير المباشرة ثم أعادت إطفاءها من جديد.
لم تدر ماذا تفعل برأسها. هي ترى رأى العين مسافة مستعصية بين ما في رأسها، وبين تلك الأزرار والزوايا والزجاج. لم تجد مخرجا سوى أن تستلقي مرة أخرى، في ماء حمامها الساخن.
كيف يستطيع ذلك الرجل الأنيق، الضئيل، زوجها، الحاضر الغائب أن يكون له كل هذا الحضور المنتظم كدقات نقط ماء على رأس امرأة حليق. جدول أعماله اليومي، والارتباطات، نقوده، حسابات البنك، والمكتب، والعمارة، أوراقه البيضاء اللامعة، يملؤها خط يده الدقيق، حروف حمراء وخطوط زرقاء مزدوجة تحت الأحرف والأرقام، تخنقها، تدفعها.. تدفعها تحت الماء.
سألت نفسها هل هو عشيقي ذلك الرجل الآخر، ذو الشعر الخشن، لماذا تذكر دائمًا ذقنه، أصابعه المليئة بالنبض، كلما ذكرته أحست بأعشاب على رقبتها، أو طعم خمرة في حلقها.. ولا تبتلع، تأتيها ذكراه وهي في الماء، أو وهي مع زوجها، تأتيها أكثر.. عندما يسقط قلبها في فراغ.
حاورته ثلاث مرات بالتليفون قبل العصر، عند الغروب كانت معه في الطرف الآخر من القاهرة، وقفا إلى جوار حقل مريض الزرع، وفلاح وحيد، وشمس تسقط في دخان كثيف، ذقنه العريضة وأصابعه كنقطتي ضوء في ظلام العربة الداكن.
«زوجي.. حريتي.. حبي البارد» أحست بصدرها وأردافها تلامس رخاما باردا، ابتعدت عنها الذقن العريضة والأصابع، سقط أمامها مئات في ستائر النايلون الشفاف.
هل يسري الزوج في العروق، باردًا، نظيفًا، ناصعًا، بدلا من الدماء، كيف وقع لها هذا الحصار من الداخل والخارج، ماذا أخذ منها زوجها في مقابل السيارة والعمارة والنقود، ماذا تعطي هذه الذقن والأصابع سوى ارتجافة في الرقبة أو في عمودها الفقري؟
ألن تكون لها أبدا حياة؟

أخذها كالعادة، عندما أفاقت وجدت حولها بقايا أشياء ودخان وجدته ينظر إليها عارية، وقد أسند ذقنه بكفه وأصابعه.
كانت القاهرة نائمة، في أول ليل شتاء، نوافذ الشقق تضيئها أنوار التليفزيون، بدت لها المسافة إلى بيتها بعيدة، خافت من العربات المسرعة، ومن الأشباح التي تتسند عند النواصي، كم هي وحيدة، شد رأسها من الخلف صداع باتر.
فتحت الشقة فرأت زوجها جالسا في كل مكان، عندما سقطت على المقعد، أحست تحت أقدامها العارية بجمرة فحم مشتعل.
سالت من عينيها دموع من حجر.

تـاريخ حياة رجـل

على الرغم من كل سنوات العمر التي تقترب من نصف المائة، على الرغم من كل الشوارع والحواري والمدن والقرى والحدود والطرق الممتدة التي عرفها وجال فيها، فإنه بات يشعر هذه الأيام بأنه عاش ويعيش وسوف يموت على هامش الحياة.

حمزة البهلوان لم يكن ضعيفًا، ولم يكن يعرف أمراض الفكر والعقل التي تنخر في عظام الرجال، إلا أنه كان يملك عيونا زرقاء صافية يحب أن ينظر بها إلى قمم الأشجار، والسماء البعيدة، حيث الغيب والنجوم، وقوانين العالم الخفية.

عندما يدق طبلته السريعة ويصيح صيحات الحرب والعمل والجنون، ويبدأ الأطفال، والرجال والنساء في التجمع وتكوين حلقة حوله، وحوله «توسكا» الكلبة، و«العتر» ابنه، ويلقي في وسط الدائرة بالسلاسل، والحبال، وسيخ النار، وطارة العجلة القديمة، وصندوق الأسرار، فإنه يشعر بأنه هو مركز العالم، ومحور الدوران كله، لكن عندما يذهب الجميع وتنفض الحلقة، ويعود هو يجمع الأشياء في الكيس الكبير، ويجلس العتر إلى جوار كلبه، فإن حمزة كان يجد صعوبة شديدة في أن يبدأ أي حديث، ويشعر حقًّا بأنه على هامش الحياة، وبأنه وحيد، وأن العتر ابنه الصامت، مصدر هم جديد، لا يعرف كيف يواجهه.

ماتت نرجس زوجته التي كانت تجمع النقود، تحولت ملابسها الملونة إلى خرق قماش رتق بها هو الكيس الكبير، ماتت أيضًا توسكا، بعد أن نحل شعرها، وأصبحت لا تكف عن الهرش في أثناء أداء الألعاب، لم يبق إلا هو و«العتر» ابنه والحبال والسلاسل وسيخ النار الذي صار يكره استعماله ويلغيه في أكثر العروض.

في كل مرة عندما ينجح في كسر سلاسل الحديد، وفك الحبال والخروج من أسرها جميعًا، فإنه كان ينهض من الأرض على وقع تصفيق الأطفال والمشاهدين، يحلق سعيدًا في السماء، لا يرجعه إلى الأرض سوى النظرة المصمتة النافذة التي يستقبله بها «العتر» وهو يستأذن في جمع النقود.

كان اليوم مجزيًا، قدم في شوارع المدينة خمس جولات، وأحصى «العتر» ما يقرب من خمسة جنيهات، عادا مبكرين إلى الغرفة الصغيرة المليئة بقطع الحديد والزلط، واستطاع هو أن يشرب عددًا لا بأس به من كراسي الحشيش، وأن يجرع زجاجة كينا صغيرة، أعاد «العتر» ترتيب قطع الحديد التي يلعب بها، ولصق الطائرة الورقية، ونام وهو جالس في وسط الفراش الواسع.

أما هو فقد فتح باب الغرفة وجلس على عتبتها محدقًا في الظلام الواسع الذي تملؤه كلاب تلعب، وتحده من بعيد أضواء المدينة الساهرة.

عاوده نفس الشعور الذي بات يتردد عليه كثيرًا، خاصة في أول الليل، أول ما يفتح عيونه في الصباح.. شعوره بأنه على هامش الحياة.

أسند رأسه إلى الجدار الخشن وراح يعيد ترتيب الإجراءات التي سيقوم بها.. سيقف يومًا كاملاً في طابور السجل المدني، حاملاً أوراقًا وصورًا، وسيقف العتر معه.. يومًا كاملاً أو أيامًا لا يهم، ستكون له بطاقة جديدة، وسيضعها في المحفظة الجلدية التي عثرت عليها نرجس، سيكتب اسم العتر في صفحة مستقلة، إنه في حاجة إلى ورقة جديدة لكي يغير المهنة، لكي يرفع كلمة عاطل، ويضع بدلاً منها كلمة عامل، أي عامل، ورقة سيحصل عليها غدًا من أحد الأعيان الجدد الذين يجلسون عاطلين بلا عمل على المقهى، وسيدفع جنيهين.

أخرج بطاقته القديمة، وأخذ يحدق في الحروف والرسوم، وفي ختم النسر المطبوع والإمضاءات والأرقام.
سأل نفسه لماذا لا يحمل الناس دفاتر صغيرة تحوي تاريخ حياتهم، وأين ذهبوا، وماذا فعلوا وماذا لم يفعلوا، دفاتر يسجل الناس فيها حسابهم مع الدنيا، مع الليل والنهار.
سمع العتر يدمدم وهو نائم بكلمات عالية، وفكر في الموت، والمستقبل، وراقب نوافذ بعيدة تطفئ أنوارها ويحل بها ظلام.
ورأى قبل أن يغلبه النعاس طوابير طويلة من الناس الصم، يعبرونه دون التفات.

المتوحشة والجلاد

(في منتصف الطريق تعطلت السيارة.. تركته يحاول إصلاح أشياء في «الموتور» وتطلعت حولها إلى الصحراء هل يمكن أن تترك حياتها تضيع هكذا معه، اختفى نصفه داخل السيارة، لم تعد ترى سوى ظهره وساقيه، السيارات الأخرى تمر مسرعة، لا أحد يتوقف، أصبحت هي وهو وحدهما في هذا التيه.

(ابتعدت خطوات، بحثت في الأفق عن شيء تنشغل به ولكنها لم تجد سوى رمال وتلال بيضاء.

(أدارت رأسها ناحيته، وصاحت:

ـ ألن تفرغ أبدًا؟ يجب أن نكون في البيت قبل أن ينام الأولاد.

(لم تعتن بسماع رده، فقد كانت تعرف أنه يطلب منها أن تصبر وألا ترهق أعصابها.

(أصبحت تعرف أغلب إجاباته قبل أن يتلفظ بها، أصبح صوته يدق على أعصابها في رتابة، وخاصة طريقته في مط نهاية الكلمات.

(رحلة ملعونة، متى تنتهي؟ تمنت أن تنشق الصحراء عن جني، أو فارس، أو حتى قاطع طريق يخطفها ويضع حدًّا لكل شيء.

(أخرج رأسه، وأغلق «موتور» السيارة، ودعاها مرة أخرى للركوب، مسح يديه والعرق الذي تصبب من وجهه، بدأ يشرح في هدوء نوع العطل الذي أصاب السيارة، وماذا فعل بالضبط وما هي الإجراءات التي سيتخذها عند العودة، كأنه يكلم نفسه.

(أدارت راديو السيارة، أغلقته، وقالت:

ـ فهمت، فهمت.. ألا تتركني أبدًا لحالي.

عاد يصفر بفمه لحن الأغنية التي فتحت عليها الراديو ثم أغلقته وابتسم تلك الابتسامة الخاصة التي يواجه بها بخار الغليان الذي يتصاعد من داخلها.

(في استراحة على الطريق شرب هو فنجانًا من القهوة، ولم تشرب هي سوى كوب ماء، حدقت في ملامح وجهه، لا أحد يمكن أن يصدق أن هذا الرجل الذي يجلس أمامها جلاد يجلدها كل لحظة بالصمت والابتسام، صفير فمه يجلدها يكرر لها دائمًا، افعلي ما تشائين، أما الطلاق فلن تحصلي عليه أبدًا.

(حط ذباب على مفرش المائدة، بدت لها كل طرق الحياة مسدودة، كيف يرتكب الناس الجرائم، كيف يضعون السم في الفنجان أو يطعنون الأجساد في الظهر بالسكين، ابتسم للجرسون وهو يدفع الحساب.

(عاد، إلى السيارة، قال:

ـ هل تذكرتِ بعض الهدايا للأولاد؟

(لم ترد. عاد مسرعًا إلى المقهى، اختفى داخل الاستراحة، وحدها في السيارة، في القصص والسينما يهربن، ينطلقن بالسيارة في طريق الحياة لكن إلى أين لم تبدو الدنيا ضيقة خانقة إلى هذا الحد؟

فيما تبقى من طريق، والعربة تدخل بهما إلى المدينة المختنقة والمرور اللعين، تجنبت أن تسمعه يعيد مرة أخرى على مسامعها في برود:

ـ حريتك، حريتك، لماذا تريدين أنت حريتك؟ وأنا لم أعرف يومًا معناها.

دخلا إلى البيت معًا، كانت تشعر بنفسها مشدودة وراءه بحبال غليظة خشنة.

أسرع إلى الثلاجة يشرب، ويخرج لنفسه طعامًا وهو يردد كلمات كل يوم عن الطعام والنظام ونظافة البيت.

أما هي فقد دخلت إلى غرفة الأولاد، كانا قد ناما وتناثرت في الحجرة لعب مكسورة، وبقايا طعام.

ألقت بنفسها على الكنبة وهي ما زالت في ملابسها، دفنت رأسها في المخدة، في لحظات ما بين النوم والإغماء رأت نفسها نمرة متوحشة تخمش وجه زوجها بأظافرها الطويلة الصلبة.

الحفـل الرسمي

عندما وصلتني بطاقة الدعوة قررت أن أذهب إلى حفل العشاء الرسمي الفاخر، رغم أنني أعرف أن بدلتي السوداء رثة ولا تليق، لكن من أنا على أية حال؟! سيكون هناك عشرات ممن هم أهم مني، سأكون في آخر الصفوف، وفي الضوء الخافت ولن توجه إلي أبدًا فلاشات الكاميرات.
أستطيع أن أبقى في الخلف وأن أراقب كل شيء.
بعد أن خضعت للتفتيش في مدخل القاعة، ووضع رجل بلا ملامح يده على جسدي، وبين ساقي قال:
ـ علبة سجائر.
قلت:
ـ نعم.
قال في استهانة.
ـ اتفضل.
أول من قابلت في الحفل قال لي:
ـ عبد الله شديد.. الصحفي الكبير.
قلت:
ـ لا.. أنا حسني عبد الحميد.
قال:
ـ أنت تشبهه إلى حد كبير.
قلت:
ـ مات منذ ثلاث سنوات.
قال:
ـ ومنير فهمي؟
قلت:
ـ مات هو الآخر.
وضع يده على كتفي في حركة مفاجئة وقال هامسًا:
ـ لقد كنتم معًا.. كلكم.. أليس كذلك؟
حدقت في وجهه لكي أتعرف عليه أو أتذكره، لكنه كان هو الآخر بلا ملامح، قبل أن ينسحب ترك في يدي زجاجة خمر كبيرة شبه فارغة.
وجدت نفسي في الأطراف بعيدًا عن دائرة الضوء في الحفل، شعرت برغبة عارمة في اقتحام هذه الدائرة بعد أن أفرغت ما بالزجاجة في جوفي.
وأنا أحسب طريقة وخطوات الاقتحام، سمعت من يصرخ.. حسني عبد الحميد يا كلب.. يا بن الكلب.. كان الصوت مخمورًا صارخًا كأنه ثوب حرير يتمزق.. وفي ثوان أحسست بأكواب زجاجية متطايرة تحاصر رأسي.. استمرت الأكواب والزجاجات تحاصرني، وارتبك الحفل والصوت يعلو قائلاً:
ـ ماذا جاء بك يا بن.. تريد أن تأكل دماغي وأصابعي؟
كان يرتدى ملابس غريبة، بنطلون قصير، وفي يده مضرب تنس.. وأوراق كثيرة وزجاجات.

دخل القاعة أربعة من الرجال الذين لا ملامح لهم أمسكوا بي وقبضوا علي. فتح أحدهم فمه وهو يضع القيد الحديدي في يدي وقال:
ـ نحن نعرفه.. نعرفه جيدًا.. ولكن أنت من أنت؟
قلت بصوت كأنه ليس صوتي:
ـ أنا مفكر.. فقط مفكر عربي.

ثلاثة نقوش في الزمان والمكان

(١)

يمكن أن تكون ممن لا يعرفون الإسكندرية جيدًا.. ولكن هذا الحادث لا يمكن أن يقع إلا هناك.. في واحد من شوارعها الصغيرة الضيقة التي تنحدر مباشرة أو غير مباشرة إلى البحر.. في هذه الشوارع يمكن أن يحدث أي شيء، أن تنشق الفواصل بين حجارة الرصيف عن جنيات عرايا يظهرن ويختفين فجأة في لحظات، أو تسقط طفلة صغيرة أمام عربة مسرعة ولا تموت، أو يسود صمت أكثف من أي صمت.. أو تسمع أصوات تصدر من لا مكان.. ودائمًا يحمل هواء الشارع الخالي أشواقًا لعالم غريب..

قرب انتهاء ساعات العصر دخل بائع ليمون إلى الشارع ووقف يتأمل نهايته لحظة، أقدم على الدخول فيه دون سبب أو مبرر.

كان وجهه طيبًا نديًّا، رغم شعيرات الذقن الرمادية ورثاثة الطاقية، رجل قديم وخفيف بجلبات أزرق حائل، والحزام الجلدي الذي تتدلى منه قفة الليمون الصغيرة كأنه الشيء الوحيد الذي يشده إلى الأرض.

عدد الليمون في القفة ليس كثيرًا، وتعب النهار يلقاه منعكسًا على الجدران والبيوت والأحجار والنوافذ، والقُرندات، أصفر الليمون، وأخضر، صحيح، وعليل، ومضروب.

وحزام القفة الجلدى مربوط بالدوبار، والجلد والدوبار يلمسان الكتف العارى من تحت الجلباب.

تصادف والرجل ينزل إلى منتصف الشارع الخالي، يحك قدمه الخشنة بأسفلت الشارع أن خرج الأستاذ من باب العمارة التي يسكن فيها مسرعًا، كان كل شيء في الأستاذ من ياقة قميصه حتى بوز حذائه يقطع بأنه يعرف طريقة على الأقل لست أو لسبع ساعات قادمة.

كان يفصل بين الرجلين مسافة كطول صالة من صالات البيوت القديمة.. وفجأة بدأ كل شيء يقع، الأستاذ يتحرك والمسافة بينهما لا تقطع.. لا يمكن أن يكون واقفًا، ولا يمكن أن يكون ينادي عليه أو يطلب منه شيئًا.. الحركة أمام بائع الليمون دائمة ولكنها جامدة وبصره الكليل يحدق.. يحدث أمامه الآن ما هو أغرب؛ يدا الأستاذ تتقلصان بسرعة شديدة، وهو يهزهما معًا، سار الكف قرب الكتف، واليد صارت يد الطفل، إلا أن وجه الأستاذ كان لا يزال يلمع ونظارته ذات الإطار الذهبي ثابتة على وجهه.

ينعكس على وجهه الجامد المرسوم أن كل ما في الرأس من برامج وأفكار ما زال مرتبًا وواضحًا كما كان.

خطا بائع الليمون خطوتين دون تردد لكي يتأكد مما يحدث أمامه، وجد أن ساقي الأستاذ أيضًا تتفرجان إلى الخارج من جراء الجهد الكبير الذي يبذله لكي يتحرك.

استخار الله وحاول أن يصرف نظره، حاول أن ينحرف في الشارع وألا يواجه ما يحدث أمامه ولكن الأستاذ كان قد استدار وأخذ يجري بسرعة في الاتجاه المضاد.

كان جسده الكبير الذي بلا ذراعين يسد نهاية الشارع، ووجد بائع الليمون نفسه يجري وراء الظاهرة الغريبة، من الطبيعي أن ينزلق من على كتفه حزام الجلد الذي يحمل القفة.

وأخذ الليمون يجري كله حولهما في أرض الشارع المنحدر، قد تكون المسافة التي قطعاها طويلة أو قصيرة.. ولكنهما فوجئا في نهاية الشارع بمنظر الغروب المهيب، القرص يسقط في الماء وهما يواصلان الجري نحوه ونحو البحر.

كان الليمون يسقط في البحر، بعضه يعلق بالطحالب والصخور، كما اختفى ـ أيضًا ـ الأستاذ وبائع الليمون.

(٢)

كانت الدائرة ترقد كبيرة هادئة في ركن المربع.. قطرها متماسك وقوي ومساحتها مستقرة وطيبة.. لم يكن في شكلها ما يوحي بأنها تشعر بما يدور حولها في المربع المغلق المنضبط الأضلاع والزوايا.

المربع الذي كان يشغل مكانًا ما، كان مليئًا بأشكال كثيرة أخرى.. مستطيلات صغيرة.. ومربعات أصغر.. ومثلثات.. وأشكال هندسية وغير هندسية.. أشكال لها أسماء.. وكان للجميع مكان.. المربع مزدحم ولكنه لا يزال يتسع للجميع.. يسود هذه الأشكال سكون قد تتحرك زواياها وأضلاعها في ملل، ولكن الدائرة الكبيرة المستقرة القطر والمركز والمساحة كانت دائمًا أبدًا تشغل نفس الحيز بنفس الوقار والطيبة، إن أحدًا لا يدري متى بدأت عملية التداخل.. وأحدًا لا يدرى السبب فيها.. ولكن لا بد أن هناك حقيقة هندسية أملت تلك الحركة التي استمرت ولم تتوقف حتى النهاية.

لم يكن هناك زمن يمكن اعتباره البداية ولكن كل الزوايا والأضلاع أخذت تبحث عن وضع نهائي ومستقر.. الزوايا الحادة والمنفرجة والقائمة.. والأضلاع القصيرة والطويلة، المستقيمة والمتعرجة كلها دبت فيها حركة ذاتية وكأنها رأت فجأة حدود المربع كله ومكانها.. ومكان الدائرة في الطرف الأعلى.. ومكان كل شكل.

لم يكن خداعا في النظر ولا في الحواس ولكن الحركة كانت تتم بين الجميع في تآلف موسيقى.. تحركت كل الأشكال في سرعة واحدة.. وبلا صوت احتكاك.. من أعلى كان المربع كله يبدو كأنه بحر من سكون لين يخفق في حلم طفل نائم.

قطر الدائرة الكبيرة ومساحتها ومركزها كانت جميعًا تطل على المشهد في نفس الطيبة والوقار.. ومر ما يمكن أن يكون زمنًا طويلاً.. تغير فيه إيقاع الحركة.. ومال إلى العنف ثم مال إلى الركود ثم تهدل وتكون في قاعدة المربع شكل يكاد يشبه الدائرة، وخلا المربع إلا من الشكلين.

(٣)

المكان قطعة من تراب لين دقيق ناعم.. تحت ظل سور من أشجار «الجهنمية» ذات الزهور الحمراء وتمر تحت السور مباشرة قناة صغيرة فيها قليل من الماء الراكد.. ولكن سطحها يلمع بنور شمس يتسرب من بين الفروع الغزيرة لسور الجهنمية العجوز.

كان في المكان صمت إلهي كأن الكون كله لم يخلق بعد.. مكان صغير جدًّا لا يمكن أن يوجد فيه إنسان ولكن قد تسقط عليه عيون آدمي من بعيد فترتاح عنده، وتحلم بأن تذوب في الذرات وبقع الضوء على سطح الماء.

في خطوات صغيرة اقتحم كلب عجوز المكان المريح.. وتطلع من بين فتحات سور الجهنمية إلى ضوء الشمس.. فرأى انعكاسها على سطح الماء.. وأدرك أن خطواته قادته إلى هناك؛ لأنه متعب وعطشان فمد أنفه الأسود وسط بقع النور فوق سطح الماء وشرب.

ثم هز رأسه بعنف فتناثرت قطرات الماء.. وانبعث من خياشيمه صوت. وطارت فراشة بيضاء.. ثم رقد على التراب اللين وانعكس بعض من ظله على صفحة الماء.